ثالثًا: مسئولية الثقافة

١- هل يستطيع المثقف أن يكون جسرا بين الحاكم والمحكوم؟

٢- كيف يفكر المثقف العربى؟

٣- مكونات الثقافة العربية.

٤- كيف نتعامل مع الموروث القديم؟

٥- كيف نتعامل مع الوافد الجديد؟

٦- كيف نتعامل مع واقعنا المعاصر؟

٧- الاختراق الثقافى.

٨- هل تقوم الثقافة على ساق واحدة؟

٩- وحدة الثقافة ووحدة الأمة.

١٠- الحوار بين الاستبعاد والاحتواء.

obeikan.com

obeikan.com

١ - هل يستطيع المثقف أن يكون جسرًا بين الحاكم والمحكوم؟(*)

إذا كان عصر الاستقطاب قد انتهى بين الشرق والغرب بانتهاء الحرب الباردة فقد بدأ بين الحاكم والمحكوم فى عصر القطب الواحد بين الشمال والجنوب. وإذا كان الشرق فى النهاية ـ على الأقل الشرق الأوروبى ـ قد أصبح جزءًا من الغرب بعد حل حلف وارسو لصالح حلف شمال الأطلنطى فإن البون ما زال شاسعًا بين الحاكم والمحكوم فى الجنوب خاصة فى الوطن العربى، حيث تتفاقم أزمة الحرية والديمقراطية فى المجتمع والدولة لدرجة الانقضاض عليها كما حدث فى العدوان الأمريكى على العراق.

والمثقف هو الواعى بالثقافة. والثقافة هى الوعى بالعالم. فالثقافة ليست مجرد معرفة نظرية بالعالم ولا مجرد التزام عملى بقضاياه، ولكنها هى الوعى النظرى بالواقع العملى. هى الرباط بين النظر والعمل، والجمع بين هموم الفكر وهموم الوطن.

وفرق بين المفكر والمثقف. فالمفكر هو الذى يقوم بالتحليل النظرى لما يعرض له من موضوعات كى يقدم المعرفة النظرية الأولى به. مهمته المعرفة. فإذا ما التزم بها وعمل على تحقيقها وناضل فى سبيلها فهو المثقف. فالمثقف أكثر التزامًا بالواقع من المفكر. وقد يبقى المثقف على مستوى الخطاب، خطاب المثقفين المغلق على ذاته، والذى لا ينتج عن ممارسة عملية فيما يسمى بـ «أزمة المثقفين». وقد يخرج الفكر عن نطاق الفهم والتحليل إلى الالتزام بتحديات العصر.

المثقف هو بالضرورة المثقف العضوى الذى يجعل الثقافة لديه نظرًا وعملاً، فهمًا للعالم وتغييرًا له، معرفة وسلوكًا. هو المثقف الملتزم بأدبيات العصر والذى يعرف قوانين التاريخ وطبيعة الواقع، يد مع السلطة، ويد مع الشعب، من أجل تقريب المسافة بينهما، وتجاوز الخصام الوطنى إلى المصالحة الوطنية، وتجاوز الخلاف على السلطة إلى الاتفاق فى الوطن.

(*) جريدة الاتحاد: ١٩ يوليو ٢٠٠٣م، جريدة الزمان: ٢٤ يوليو ٢٠٠٣م.

وهو السؤال نفسه بالنسبة للثقافة: هل تستطيع الثقافة أن تردم الهوة بين الحاكم والمحكوم؟ فكلاهما ينتسبان لثقافة واحدة ذات وجهين. ينتسب الحاكم إلى ثقافة السلطة، وينتسب المحكوم إلى ثقافة المعارضة. هل يستطيع الحوار بين الثقافتين أن يقرّب المسافة بين الحاكم والمحكوم؟ إن الذي يحكم في الحقيقة ليست هي السلطة التنفيذية بل سلطة الثقافة التي ينتسب إليها كلٌّ من الحاكم والمحكوم.

وهناك ثلاثة مواقف تظهر في سلوك المثقف بالنسبة لعلاقته بالسلطة. الأول مثقف السلطة. وهو فقيه السلطان الذي يبرر قراراته، ويشرّع لسلطانه، ويزيّن مواقفه، ويثني على إنجازاته، ويلهث وراءه. والسلطان يعرف أنه ينافقه ولكن في حاجة إليه من أجل إيهام الشعب وخداع العالم بل وإيهام نفسه بأنه أبو الأبطال، وزينة الرجال، وعالم العلماء، وحكيم الحكماء، والأخ القائد، والزعيم الخالد. فإذا تغيرت الموازين على الساحتين المحلية والدولية، وغيّر السلطان قراراته، وبدّل سياسته، من الاشتراكية إلى الرأسمالية، ومن العروبة إلى القطرية، ومن مقاومة العدو الصهيوني إلى الاعتراف به والصلح معه، ومن مقاومة الاستعمار إلى التحالف معه والاعتماد عليه غيّر فقيه السلطان أيضًا. وقام بتبريرات مضادة لتبريراته الأولى، وزيّن للسلطان قراراته الجديدة بنفس الحجج وبنفس المصادر مع انتقاء جديد من فصولها ونظرياتها، واستدعاء آيات وأحاديث أخرى غير الأولى. والقرآن حمّال أوجه. والنظريات المتعددة ما أكثرها. والمثقف ينتقي ما يشاء طبقا لرغبات السلطان.

والثاني شهيد السلطة، يقف على نقيضها. لا يبغي حوارًا ولا حلولاً وسطًا. هو السلطة البديلة التي في المعارضة والتي ستصل يومًا إلى القصر إذا ما كان هناك تداول للسلطة، وانتخابات حرة، وتعددية حزبية، واستقلال قضائي في الداخل أو إشراف دولي من الخارج. ويفرض السلطان الحصار عليه. ويمنعه من الكتابة أو التعبير الحر على منابر الدولة. فلا تبقى له إلا منابر المعارضة غير المؤثرة. وفي أي لحظة خطر على الأمن العام، سواء أكانت هبّة داخلية أو عدوانًا خارجيًا، يكون أول المعتقلين والمعذبين داخل السجون، وأول ضحايا التعذيب والاتهام والإدانة بتدبير مؤامرة لقلب نظام الحكم. ويقضي معظم حياته داخل السجون أكثر مما يقضيها خارجها حتى ييأس من النضال، ويشيب الشعر، ويهن العظم، ويكتب المذكرات التي ينعى فيها الزمن الرديء.

والثالث هو المثقف الوطنى، الجسر بين السلطة والجماهير، بين الحاكم والمحكوم. هو الذى يقلل المسافة بين الاثنين حتى يتم الحوار ويقع التفاهم بدلاً من الخصومة والعداء. فيخفف عداء السلطة للناس، وعداء الناس للسلطة، بناء على مبدإ فقهى «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح». فبدلا من أن يزداد الشقاق بين الحاكم والمحكوم، وتتباعد المسافة بينهما فيقع الصدام إلى حد الحرب الأهلية كما هو الحال فى الجزائر، تُحقن الدماء، وتتم المصالحة التاريخية، ويحدث تفاهم مشترك بين الطرفين، وتنازلات متبادلة، وإقامة الجسور بين الطرفين المتعارضين.

ولما استحال الوسط المناسب فإن المثقف الوطنى قد يكون أقرب إلى السلطة منه إلى الشعب، يعمل لصالح الحاكم أكثر مما يعمل لصالح المحكوم. وقد يكون ذلك عن حسن نية أو عن ذكاء يجنبه بطش السلطان، والاقتراب من الذئب أكثر من الاقتراب من الحمل. وقد يكون أقرب إلى الناس للتعبير عن آرائهم لدى السلطان مباشرة، متجاوزًا وسائل الإعلام التى زيفت الحقيقة، وجعلت الحق باطلاً، والباطل حقّا. فهو إعلام موجه من مثقفى السلطان وتحت سيطرته المباشرة.

وقد يعمل المثقف الوطنى لمصلحته الخاصة فى الأساس، وتغطيتها بالعمل لمصلحة السلطان أو لمصلحة الشعب. فله المنصب والجاه والشهرة والمال والحظوة وثقة الطرفين به. له بالطبيعة ولاء مزدوج، وقادر على أن يقوم بخدمة سيدين فى الوقت نفسه. وهو الكاسب فى كلتا الحالتين. إذا انتصر السلطان فهو من أهله. وإذا انتصر الشعب فهو من طليعته. وفى هذه الحالة يكون أقرب إلى المثقف الانتهازى منه إلى المثقف الوطنى. وهى طبيعة الطبقة المتوسطة بين الطبقة العليا التى تمثلها النخبة الحاكمة، والطبقة الدنيا التى تمثلها جماهير الشعب.

ويستمد المثقف الوطنى ثقافته من ثلاثة مصادر. الأول الثقافة الغربية ولها الباع الأطول فى النظريات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحديثة. وهى متنوعة الاجتهادات، ومعين لا ينضب لمن يشاء الاختيار. لها بريقها الإنسانى، ومصطلحاتها الحديثة، وأسسها العقلية، وقدرتها على الإقناع. أصبحت شائعة منذ مائتى عام منذ فجر النهضة العربية وحركة الترجمة الثانية منذ القرن التاسع عشر. انتشرت لدى النخبة وحكمت باسمها. وشاعت بين الناس من خلال أجهزة الإعلام ونظم التعليم. بل لقد

تعربت كثير من ألفاظها مثل: ديمقراطية، ليبرالية، برجماتية، كوجيتو، فينومينولوچيا، أيديولوچيا، أنطولوچيا، إبستمولوچيا. كما عرّبت الألفاظ اليونانية القديمة مثل: فلسفة، هندسة، جغرافيا، چيولوچيا، فزيولوچيا، فيزياء، موسيقى... إلخ. وتعطى المثقف نوعًا من التعالى والغرور. فهو يعلم ثقافة الغير الأكثر تقدمًا من ثقافة الذات، من مظانها فى اللغات الأجنبية وليس فقط ثقافة الأنا التقليدية باللغة العربية.

والثانى الثقافة العربية التقليدية. يقوم فقهاء السلطان باستعمالها، ذوو العمائم الذين يمثلون شرعية القدماء، ويمدونها إلى شرعية المحدثين. لها سلطتها عند الناس. فهى نابعة من موروثهم القديم الذى وصل فى وعيهم إلى حد المقدس ذاته. يسهل فيها الاعتماد على الأدلة النقلية، الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، واستدعاء نماذج الصحابة والتابعين وتابعى التابعين وعلماء الإسلام وقضاتهم. انتشرت من خلال البرامج الدينية والتمثيليات الإذاعية وصفحات الفكر الدينى فى أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة. لها منابرها الحرة فى خطب المساجد، ودروس العصر، وشرائط الدعاة، وكتب التراث المتوافرة بأسعار التكلفة، وبدعم خارجى فى دور نشر التراث، والأكثر مبيعًا فى معارض الكتب المحلية والعربية. تحاصر من يخالفها، وتقصى من يحيد عنها إلى حد التكفير. ويمكن أن تلعب بالدور المزدوج، ثقافة القمع إذا اقترب المثقف أكثر من السلطان، وثقافة التحرر إذا انحاز المثقف إلى الشعب.

والثالث الثقافة الشعبية فى الأمثال العامية والأقوال المأثورة وسير الأبطال. فهى أيضًا مؤثرة فى حياة الناس، تتمتع بنفس السلطة التى للموروث الدينى القديم. بل ويختلطان معًا، فكلاهما حجة سلطة. وكثير من الأمثال العامية تتفق فى معانيها ومقاصدها مع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وبخاصة فى القضاء والقدر، والرضا، والصبر، والتوكل، والزهد فى الدنيا، والأجل المحتوم، وطاعة السلطان. وبها أيضًا، وإن كان بدرجة أقل، أقوال معارضة للسلطان تدعو للثورة عليه، وأخرى ترفض المقدّر والمقسوم وتدعو إلى حرية القرار، وأخذ زمام المبادرة.

والمثقف الوطنى القادر على أن يكون جسرًا بين الحاكم والمحكوم ومنحازًا إلى مصلحة الشعب ومنتميًا بوعيه إلى وعى الجماهير هو القادر على أن يؤصل نفسه فى

التاريخ القديم، تواصلاً بين الماضى والحاضر. فقد قام المعتزلة القدامى بهذا الدور كنوع من المعارضة الفكرية العلنية، الرأى بالرأى، والحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان، وإعمالاً بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عن طريق المنابر العلنية، المساجد والمدارس ودور الإفتاء والقضاء، واحتسابًا لوجه الله. فاحتسبة هى الوظيفة الرئيسية للحكومة الإسلامية، وكما أقر فقهاء الأمة بل السلفيون منهم مثل ابن تيمية.

ولا يحتاج المثقف الوطنى إلى الخروج بالسلاح ودعوة الناس معه على الحاكم الظالم، والاستقرار خارج المدن، وتكوين جماعات مسلحة للسطو على الأسواق وتقتيل الناس كما تفعل بعض الجماعات الإسلامية الحالية، وسفك دماء الأبرياء. وقد كان هذا طريق الخوارج، رجال صدق فى الإيمان والعمل. فالإيمان بلا عمل نفاق، والعمل بلا إيمان كفر. وإذا شهر مسلم السلاح فى وجه مسلم آخر، حاكمًا أو محكومًا، فإنه فى النار، قاتلاً لأنه قتل مسلمًا أو مقتولاً لأنه كان حريصًا على قتله.

كما لا يحتاج المثقف الوطنى النزول تحت الأرض، وتكوين خلايا سرية ضد الحاكم انتظارًا للانقضاض على الحاكم إذا جد الجد، وحانت الساعة، وظهر الإمام الغائب كما هو الحال عند الشيعة. فالجهر بالحق ليس دعوة سرية، و«الساكت عن الحق شيطان أخرس». ويقول نوح: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ [نوح: ٨]. وما زال كثير من الحركات الإسلامية المعارضة الآن تحت الأرض، غير معترف به شرعيًا حتى يخرج فوق الأرض ويمارس دعوته إلى الإصلاح جهرًا وعلانية.

المثقف الوطنى الشعبى العضوى هو ضمير الأمة، والحارس على أمنها، والقادر على حماية وجودها عبر التاريخ.

***

٢- كيف يفكر المثقف العربى؟(*)

من كثرة ما تعقد من ندوات ومؤتمرات حول موضوعات الساعة فى شتى أرجاء الوطن العربى، ومن كثرة ما قيل من مداخلات، تجمعت عدة ملاحظات، مجرد وصف وليس إدانة، حول: كيف يفكر المثقف العربى؟

١- نظرًا لانسداد الواقع، وعدم القدرة على الغوص فيه، ونظرًا للاستلاب عن الحاضر والعيش خارجه يتم اللجوء إلى التاريخ، وإعطاء أمثلة من الماضى للإجابة على أسئلة الحاضر، فالمماثلة بين الاثنين قائمة. ولا يصلح هذه الأمة إلا ما صلح به أولها. والتاريخ زمن طويل يستغرق سرده زمنًا أطول حتى يعلم من لا يعلم. ويبدو المثقف العربى غزير العلم فياض المعرفة. فحل الحاضر فى الماضى، فقد حوى تاريخنا كل شىء. لا فرق بينه وبين السلفى الذى يرى أيضًا أن النصوص قد ضمت كل شىء فى الماضى والحاضر والمستقبل. ومن لا يعتبر بالماضى فلا حاضر له. ولماذا لا ننظر فى أساطير الأولين، ومآثر السلف؟

٢- فإذا كان المثقف عالمًا أكثر بالثقافة الغربية، عاش فى الغرب مدة طويلة، ثم عاد نهائيًا أو مؤقتًا، مدعوًا كخبير ذى شأن فى الميدان فإنه يكثر من المقارنات مع الغرب الذى انبهر به، وعاش فى وسطه، واستلب نفسه عن نشأته الأولى قبل الهجرة لدرجة يأس الناس منه. فكيف لهم أن يصلوا إلى ما وصل إليه الغرب؟ وبدلاً من أن يأتى مساعدًا مشجعًا آخذًا باليد، يثبط الهمم، ويصيب الحاضرين بالإحباط. وتغرق السفينة، والربان فى أمان، فعلى الشاطئ الآخر يعيش. مع أن المماثلة مستحيلة بين الأنا والآخر؛ لأن كلاً منهما يعيش فى مرحلة تاريخية مختلفة. ولا تتعادل مسارات التاريخ بين الشعوب. فلكل شعب مساره. فإذا كان الغرب فى نهاية العصور الحديثة

(*) جريدة الاتحاد: ١٥ فبراير ٢٠٠٣م، جريدة الزمان: ١٢ مارس ٢٠٠٣م.

فنحن فى بدايته. وإذا كان قد مر بالإصلاح الدينى فى القرن الخامس عشر وعصر النهضة فى السادس عشر فإننا ما زلنا نكمل إصلاحنا الدينى الذى بدأناه منذ قرنين من الزمان، ونحاول تحويله إلى نهضة شاملة. وإذا كان فى نهاية التاريخ فنحن فى بدايته. وإذا كان فى عصر العولمة فنحن ندافع عن الخصوصية الثقافية. وإذا كان يدافع عن حقوق الإنسان والمجتمع المدنى والمرأة فإننا ندافع عن حقوق الشعوب والدولة الوطنية والمواطنة. وإذا كان يعرف الحقوق وليس عليه واجبات، فنحن علينا واجبات دون أن يكون لنا حقوق.

٣- فإذا ما تحدث فى موضوع فإنه يظهر العلم به من جوانبه كافة، أصله وفصله، بدايته ونهايته. ويطعّمه بأكبر قدر ممكن من النظريات والمذاهب وأسماء الأعلام، الكبار والصغار حتى يصبح العلم موثّقا، له أصحابه. وبدلاً من أن يفكر يقوم بالتدريس وتحويل المستمعين إلى طلاب. والحقيقة أن ناقل العلم ليس بعالم. إنما العلم هو ما بين السطور، ما يستنبطه العالم من المعلومات السابقة أو ما يكتشفه من تحليل الظواهر التى يتحدث عنها. العلم إضافة جديدة على ما قاله السابقون. المعلومات فى الحاسبات الآلية تنظمها وتحفظها وتختزنها أكثر مما تستطيعه الذاكرة البشرية. لا تفكر ولا تعطى علمًا جديدًا. موطنها الذاكرة فى حين أن العلم ينبع من العقل. والمثقف العربى يخلط بين الاثنين. يظن أنه يفكر بالعقل وهو فى الحقيقة يجتر بالذاكرة. ولا فرق بين مناهج النقل القديمة وتخزين المعلومات فى الحاسوب الحديث.

٤- ونظرًا لتراكم المعلومات وتزاحمها بل وتضاربها أحيانًا وغياب أى نسق لها يبدو الفكر وكأنه لا قصد له ولا هدف. لا يصب نحو موضوع معين. فكر يدور حول نفسه، ولا يخرج من دوامة الدوران، حبات عقد وخرز لا ينتظمها خيط، ومن ثم لا يمكن استعماله والاستفادة منه. لا يوظف فى إثبات شىء أو نفى شىء آخر. لذلك سرعان ما يُنسى لأنه حبات رمل متراكمة سرعان ما تذروها رياح الفكر الموجه، وعواصف الواقع المأزوم. ويتهم كل فكر واضح موجه بأنه أيديولوچىٌ فى حين أن العلم بلا قصد أو هدف هو العلم الرصين. وهو موقف مبنى على الخوف من المواجهة المباشرة مع مقيدات الواقع والسلطات فيه. يتحصن بالفكر المجرد حتى لا يصيبه رذاذ مواجهة الواقع والذى قد يصل إلى حد الشهادة إذا ما شهد الفكر على العصر، وأصبح الفكر شهيدًا. فالشهادة بالفكر والواقع، بالروح وبالجسد على حد سواء.

٥- وما دام القصد قد غاب، والهدف قد غام، لم يعد الفكر يصب فى الواقع أو يحركه. بل انعزل عنه وطار فوقه، ولم يعد مؤثرًا فى شىء. يترك الواقع تحت سلطة القوى السياسية والاجتماعية المتصارعة دون أن يكون للفكر أى دور فيه. وربما يكون هذا هو الهدف المعلن من تحويل الفكر إلى معلومات حتى يتضخم الكم على حساب الكيف، ويصبح الفكر غطاءً ساترًا للواقع أكثر مما هو مرآة تعكسه أو مبضعًا يحلله. يكثر الكلام ويقل الفعل، وتتكاثر الندوات ويضعف الأثر كما صاح محمد عبده من قبل: «ما أكثر القول وأقل العمل». والعمل يقتضى الصمت أحيانًا. والصياح دليل على الضعف. والصراخ يكشف عن العجز. والفعل يعبر عن الألم المكتوم. مع أن من الثقافة الموروثة أيضًا أولوية العمل على النظر ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾ [التوبة: ١٠٥]، «أنا أفعل فأنا إذن موجود». وتغيير الواقع قيد أنملة خير من آلاف النظريات.

٦- فإذا ما غاب التاريخ كرصيد أول للمثقف، وإذا ما عزت المقارنات مع الغرب، وإذا ما قلت المعلومات، وإذا ما غاب القصد والهدف من الكلام، وضاع الالتزام بقضايا الواقع، فإن المثقف يتجه إلى الحديث عن نفسه، يعبر عن ذاته، ويكشف مفاخرها السابقة، وإنجازاتها الحالية، ومشروعاتها المستقبلية. وكلما تضخمت الذات غطت الواقع، وضاعت الرؤية. فهو الوحيد الذى كتب وألف وشارك وناقش. لديه المفاتيح السحرية لكل المغاليق. يكفى أن يسمع السامعون. هو الإمام الغائب الذى لم يعرفه الناس بعد، والمهدى المنتظر الذى يعلن عن قدومه لو سمحت القاعة والرئاسة. يطيل الحديث. ويتحول الموضوع إلى سيرة ذاتية. ويحقق المثقف غايته بالحديث عن نفسه ظانًا أنه ينال استحسان الحاضرين، ويحوز إعجابهم. ثم يشكرهم بابتسامة عريضة قبل أن يتوقف عن الحديث، بسلطة رئيس الجلسة أو باعتراض أحد المستمعين. فيصاب بالإحباط لأنه لم يكمل الشوط، وأن القاعة قد حرمت من الخير الكثير.

٧- ونظرًا لأن الواقع ليس ضمن اهتماماته لأنه عاجز عن تحليله، وخائف من التصدى له فإنه يذهب إلى النقيض، ويتحدث عما ينبغى أن يكون كحل جذرى لتغيير ما هو كائن. ويصول ويجول فى الطوباويات والماينبغيات والعنتريات التى ما قتلت ذبابة، معتمدًا على منطق النأى والربابة كما عبّر عن ذلك أحد الشعراء. ويصف عالمًا خياليًا لا وجود له فى الواقع. يخلط بين التمنى والممكن فى النوايا، والإنشاء والخبر

فى اللغة. ويستشهد بالنصوص، الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. وربما يشفع ذلك بأبيات من الشعر، وبعض الأمثال العامية. فالنص هو خير دليل على صدق القول. وينتهى الكلام وكأن الحلم قد تحقق، وكأن ما ينبغى أن يكون أصبح ما هو كائن، وكأن الواقع يسهل استبداله وإحلال خيال ساذج أو خلاق بدلاً عنه. مع أن التحدى ليس وضع خطة نظرية لتنبيه الفأر متى يحضر القط، ولكن التحدى هو تحد عملى: من الذى يربط الجرس فى رقبة القط؟

٨- وكلما حاول مثقف آخر تخفيض الصوت، والنزول إلى أرض الواقع، والحديث عن الممكن بدلاً من المستحيل، وعما هو كائن لا عما ينبغى أن يكون، تبدأ المزايدات بالشعارات، وبدغدغة عواطف الناس السياسية والدينية. فالناس تفضل الحلم الجميل عن الواقع الأليم، ويُعلن العصيان العام لكل الأنظمة السياسية الخائنة العميلة، والمطالبة بالحد الأعلى، والأدنى لم يتحقق بعد، وإدانة الحلول الجزئية والتسويات المرحلية. فالكل خائن وهو وحده الوطنى. وقد ينتقل من نقيض إلى نقيض فيما بعد، بعد أن يحقق غرضه فى المزايدة الأولى بادعاء الوطنية التى لا تقبل المساومة ثم بالمناقصة الثانية فى سوق التسويات باسم الواقعية السياسية. وفى كلتا الحالتين، يكون من الرواد الذين يصطادون فى أعالى البحار. يسبقون زمانهم، ويتنبئون بمسار التاريخ.

***

٣- مكونات الثقافة العربية (*)

ليست الثقافة العربية أحادية المصدر. إذ تمتد جذورها إلى روافد ثلاثة، تختلف فيما بينها كمّا وكيفًا، اتساعًا وعمقًا، أسلوبًا وجمهورًا، نظرًا وعملاً.

للثقافة العربية ثلاثة روافد. الأول: التراث القديم. وهو موروث ثقافى ممتد منذ أكثر من خمسة عشر قرنًا، تحول إلى تصور للعالم ومعيار للسلوك. يظهر فى العقائد والأحكام، فى النظر والعمل، فى الفكر وفى السلوك. فهو أعمق فى التاريخ وأكثر أصالة. ويتحد بالهوية. كما تحول إلى موروث شعبى، وثقافة عامة تتجلى فى الأمثال العامية والأزجال والمواويل. بل إنه تحول إلى مقدس بعد أن اختلط بالدين وتوحد معه. لا يمكن المساس به بالنقد أو القراءة أو التعليق من أجل التطوير أو إعادة البناء، وهو موروث جماهيرى تتسع قاعدته، ويفرز المأثورات الشعبية. وهو اختيار كل الجماهير وبعض النخبة. تستعمله الحركات الإسلامية أداة لتجنيد الناس، وحامل للاحتجاج الاجتماعى والسياسى. كما تستعمله النظم السياسية من خلال أجهزة الإعلام الحكومية والمؤسسات الدينية الرسمية من أجل عزل الجماعات وحصارها واستبعادها باسم التطرف والعنف. وتعتمد على موروث محافظ آخر يدعو إلى طاعة الحكام وأولى الأمر، فجزاء الخروج عليهم القتل جزاء الفتنة. بل إن مجرد إعطاء رؤية جديدة له تبديل للدين، وجزاء تبديل الدين أيضًا القتل. وهو خطاب مباشر للجماهير يمس شغاف القلب. يعتمد على إثارة الحس والخيال. ويعد بالخلاص القريب. يعد ويتوعد، يرغب ويرهب، يثيب ويعاقب. يعتمد على جدل العواطف والانفعالات البشرية. وهو قول خطابى وليس قولاً برهانيًا بتعبير القدماء. تكثر طباعته، وتنتشر مدوناته، وبأرخص الأسعار. تغزو المكتبات، وتعم المعارض، ويتكسب منها من

(*) جريدة الاتحاد: ١٩ يناير ٢٠٠٢م.

يشاء. فلم يعد لمؤلفيها ورثة يطالبون بالحقوق. وتتعدد الألوان خاصة الأحمر والأصفر. وتتنوع الأدوات والأغلفة، وتنتشر فى مجموعات وموسوعات لتزين المنازل والمكاتب. تغرى بالشراء بصرف النظر عما بين دفتى الكتاب. تتبرك به الجماهير إذ إنه يحفظ من السوء، ويجلب الحظ. يشفى المريض، ويحرس من العين.

والمكوّن الثانى هو الوافد الغربى المترجم منذ قرنين من الزمان منذ أسس الطهطاوى «مدرسة الألسن» كما أسس المأمون «ديوان الحكمة»، فهو أقل عمقًا فى التاريخ من الموروث. يشغل سطح الوعى الثقافى بالرغم من بريقه. وإذا كان الموروث القديم يمثل الأصالة فإن الوافد الجديد يمثل الحداثة. والحداثة لها بريقها وقوة جذبها وإغراؤها. وكما يتوحد الموروث مع الماضى وعصره الذهبى الأول وتاريخه العريق، يتوحد الوافد مع الحاضر والعصر والزمن والتطور التاريخى. وإذا كان الموروث يمثل الثقافة العامة للجماهير، فإن الوافد يمثل الثقافة الخاصة للنخبة. وهى نخبة مؤثرة وفعالة، بيدها مقاليد الحكم حين تغلب على الجماهير الطاعة والولاء، إلا فى حالات الغضب والهبّات الشعبية دفاعًا عن الكرامة والخبز.

وإذا كان الموروث قد تكلس وأصبح مقدسًا، مع أنه من اجتهاد العلماء، فقهاء وأصوليين ومتكلمين، فإن الوافد من صنع الرجال، اجتهاد بشرى خالص، مذاهب سياسية من صنع البشر كالرأسمالية والليبرالية والقومية والاشتراكية والماركسية والشيوعية. تتغير بتغير الزمن. وجهات نظر متعددة حتى لو تضاربت، لا ينفى بعضها الآخر. وإذا كان الموروث خطابى الأسلوب، إنشائى العبارة، خيالى التصوير، فإن الوافد برهانى القول، خبرى العبارة، عقلانى الصياغة. وإذا كان الموروث أقرب إلى الدين فإن الوافد أقرب إلى العلم. وإذا كان الموروث سهل المنال، يتفق مع القدرة الشرائية لعامة الناس وأذواقهم، فإن الوافد لا يقدر عليه إلا النخبة القادرة على اقتناء الأصول بلغاتها الأصلية أو فى ترجمتها العربية. قد تكون مستغلقة العناوين، مجردة المفاهيم، ليس فيها ما يثير الخيال. بل يعبر الكثير منها عن الأزمة والصدمة والانهيار والتفسخ والتفكك والسيطرة والهم والغم، دون خلاص قريب. وإذا كان الموروث قد حكم من خلال نظام سياسى تقليدى محافظ، فإن الوافد أيضًا قد حكم فى نظامين ليبرالى تقدمى أو قومى اشتراكى على التوالى منذ فجر النهضة العربية حتى الآن.

كلاهما برر الحكم، وشرع للنظام. فللحكم منطقه، ولكل سلطة رجالها، لا فرق بين رجال الدين ورجال السياسة، بين المعممين والمطربشين، بين المشايخ والأفندية.

والرافد الثالث هو الواقع المعيش، تجربة العصر، أفراحه وأحزانه، توقعاته وإحباطاته، انتصاراته وهزائمه. هو تراكم الماضى والمستقبل فيه. فإذا كان الموروث يمثل الماضى، والوافد يمثل المستقبل، فإن الرافد الثالث يمثل الحاضر الذى يصب الماضى فيه باعتباره ذاكرة، ويصب المستقبل فيه باعتباره أملا. وإذا كان الموروث والوافد مدونات تحولت إلى ثقافات للجماهير والنخبة فإن المكوّن الثالث ليس نصوصًا بل هو واقع معيش، يتحول إلى نصوص أغلبها أدبية، رواية وقصة وشعرًا، وأقلها فكرية، مقالاً أو بحثًا أو فكرًا نظريًا خالصًا، هو البوتقة التى ينصهر فيها الموروث والوافد ويتفاعلان معه، يؤثران فيه ويؤثر فيهما. يتم التعبير عنه فى الخطاب السياسى للحاكم أو المحكوم، من الحكومة أو من المعارضة. فالواقع مأزوم فى حاجة إلى حل، منهار فى حاجة إلى خلاص. القديم أحد أسبابه، والجديد يدعى حله، والواقع عصى على الاثنين. فلا حل للإرث التاريخى إلا بالتحليل التاريخى. ولا حل للتراكم التاريخى إلا بالقضاء على تكلسه وإعادته إلى الظروف الاجتماعية والسياسية التى نشأ فيها، ثم إعادة توظيفه طبقًا لمصالح العصر أو خلق بدائل جديدة أكثر قدرة على التفاعل مع أحداثه والتأثير فى مسارها. الواقع مادى وملموس لا يحتاج إلى تنظير بل إلى إسكان وفرص عمل ورزق وقوت ولباس وتعليم وشفاء. هو ما يحرك الناس فى سعيهم وكدهم وتفاهمهم. ينغمس الإنسان فيه ويصارع من أجل البقاء أو يهاجر منه إلى الداخل، تحت الأرض فى الخلايا السرية. والانتظار الطويل على أبواب السفارات للحصول على تصريح بمغادرة الأوطان. وقد يتوقف، ويسير فى المكان نفسه، فيصاب بالغم والكد، ويحمل ما لا يطيق. فيموت بتوقف القلب وتوقف الحياة.

والقضية هى: ما الصلة بين هذه المكونات الثلاثة للثقافة العربية؟ هل هى فى حالة صراع أم وفاق؟ وما المكونات المتصارعة، الموروث والوافد أو الموروث والواقع أو الوافد والواقع؟ الصراع بين الموروث والوافد معروف فى تاريخنا الحديث، بين الأزهر والجامعة، التعليم الدينى والتعليم المدنى، الدولة الدينية والدولة المدنية، الدين والعلم، العمة والطربوش، الشيخ والأفندى. والصراع بين الموروث والواقع اشتد فى

حياتنا المعاصرة ببروز الجماعات الإسلامية وشعاراتها مثل «الإسلام هو الحل»، «الإسلام هو البديل»، «تطبيق الشريعة الإسلامية»، بين إزاحة الموروث للواقع والخروج عليه. وهو صراع بين الإيمان والكفر، بين الإسلام والجاهلية، بين الله والطاغوت.

والصراع بين الوافد والواقع هو صراع الاغتراب والأصالة، بين الدخيل والأصيل، بين الآخر والأنا، بين الخارج والداخل. لا يحل إلا بعد أن يصبح الدخيل أصيلا، والخارج من الداخل، والبحث عن النفس أولا قبل البحث عن الآخر. وهو الصراع الدائر حاليًا فى الوطن العربى، خاصة بعد تعثر التجربتين الرئيسيتين فى القرن العشرين اللتين مر بهما العرب، التجربة الليبرالية قبل منتصف الخمسينيات، والتجربة القومية الاشتراكية بعدها. واشتد الاستقطاب بين هذه المكونات الثلاثة بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧م. فقد ساهمت الروافد الثلاثة فى صنعها، الموروث القديم منطق الناى والربابة والعنتريات التى ما قتلت ذبابة، قشرة الحضارة والروح جاهلية. والوافد الجديد القومية والاشتراكية التى اتهمت بالماركسية والشيوعية. وقد كانت الهزيمة عقابًا لها. ثم الواقع الحالى الممثل فى الأنظمة السياسية التى كانت تهتم بكرسى الحكم أكثر مما تهتم بالدفاع عن الوطن. هل بالإمكان التوحيد بين هذه الروافد الثلاثة فى ثقافة وطنية تقوم على الوحدة والتعدد فى آن واحد، وحدة فى العمل، برنامج العمل الوطنى، وتعددية فى النظر، شرعية التيارات الفكرية والسياسية؟ هذا هو السؤال.

وقد تبنت كل طبقة اجتماعية أحد هذه الروافد الثلاثة. إذ تبنت النخبة الحاكمة الوافد الغربى، وإن شرعته بالموروث القديم من خلال أجهزة الإعلام والمؤسسات الدينية. كما تبنت الجماهير الموروث القديم، فهو أقرب إليها ثقافة ولغة وهوية. أما الطبقة المتوسطة فهى التى تجمع بين الثقافتين، ثقافة النخبة وثقافة الجماهير. تتعامل مع الحاكم بالوافد، ومع المحكوم بالموروث. ثقافة النخبة الحاكمة أحادية الطرف. وثقافة الجماهير أيضًا أحادية الطرف، وكلاهما على طرفى نقيض. فى حين أن ثقافة الطبقة المتوسطة ثقافة مزدوجة. لذلك كانت مؤهلة للحوار الثقافى والتجديد الحضارى، وتقريب الهوة بين ثقافة النخبة وثقافة الجماهير، وتجاوز الخلف بينهما.

وحدة الثقافة إذن هى المقدمة لوحدة الوطن وتجاوز صراعاته الفكرية والسياسية،

خاصة فى المجتمعات التى يحدث فيها الاستقطاب السكانى فى الأقطار العربية المتعددة الأعراق، أو الاستقطاب السياسى إلى حد الاقتتال بين الإخوة الأعداء كما هو الحال فى الجزائر، أو الاستقطاب الاجتماعى بين الأغنياء والفقراء كما هو الحال فى أرجاء الوطن العربى كله.

إن البحث عن علاقة هذه المكونات الثلاثة للثقافة العربية، هو فى الحقيقة البحث عن وحدة الأمة من خلال تفاعلها الثقافى فى الزمان حتى تخرج من حصار الزمن الذى وجدت نفسها فيه وحتى لا تتشرذم وتتجزأ فى وقت يتوحد فيه المركز الأوروبى الأمريكى باسم العولمة.

***

obeikan.com

٤- كيف نتعامل مع الموروث القديم؟ (*)

هناك عدة مواقف من الموروث القديم، نتخذها فى التعامل معه. وهى مواقف قد تكون أحد أسباب أزمة العصر، وتكشف عن مآسيه، وهى مواقف شعورية أو لا شعورية، شعورية عندما تدل على موقف الباحث ومدى التزامه بقضايا الواقع ووضعه الاجتماعى وربما موقفه السياسى، ولا شعورية عندما تترك الباحث نفسه بلا موقف إرادى ويترك نفسه لعادة العصر وظروف البيئة الاجتماعية.

الموقف الأول هو التكرار، تكرار ما قاله القدماء وإعادة عرضه دون تحليل أو تفسير أو قراءة أو نقد وتطوير. فالعلم هو المنقول لا المعقول، ما أبدعه السلف وما نقله الخلف. لا يرجعه الباحث إلى ظروفه التاريخية الأولى التى نشأ فيها. فذاك ما يتطلب جهداً زائداً وقدرة على التعليل. يكفى العالم أن يكون حامل بضاعة وليس صانعها، فأين هو من الرواد الأوائل وعظماء الأسلاف؟ يكفيه اللقب العلمى، والدرجة العلمية، والكتاب الجامعى، والإعارة الخارجية. والبضاعة رائجة، والربح يوفر الأمن للحياة. فإذا لاحظ عليه عالم آخر ذلك تذرع بالموضوعية والحياد، واحترام المادة العلمية ونقلها بأمانة إلى الطلاب، وفاقد الشىء لا يعطيه. ويتهم غيره بالحداثة واستعمال أدوات المحدثين ومناهجهم، وما يشفع ذلك من مخاطر «غربية» على الإيمان. وهى مناهج مادية تؤدى إلى الإلحاد، والقضاء على التراث القديم. ولا يحلل هذا التراث كموروث متراكم فى الوعى الحاضر يؤثر فى الناس ويحدد إدراكهم للعالم ويعطيهم معاييرهم فى السلوك. فذلك سياسة، وهو لا يتدخل فى السياسة، ولا يخلط بين الدين والسياسة، وهو فى الحقيقة لا يريد المخاطرة. ويريد أن يعيش آمنًا مطمئنًا. يؤدى واجبه بنقل العلم من القدماء إلى المحدثين، وهو أضعف الإيمان.

(*) جريدة الاتحاد: ٢٦ يناير ٢٠٠٢م.

ولا تتطلب منه واجبات الوظيفة أكثر من ذلك. بل إنه ينتظر بعدها الترقية فى المناصب الإدارية الجامعية أو خارجها، ما دام سائرًا على النظام، وليس ثائرًا عليه.

والموقف الثانى هو الرفض المطلق فى مقابل القبول المطلق. فهو تراث قديم ولى عصره، وانقضى رجاله، وتغير زمانه. ولكل عصر تراثه من صنعه. ولا يتراكم منه شىء من عصر إلى عصر. كان التراث دينيًا فى عصر، وفلسفيًا فى عصر آخر، وعلميًا فى هذا العصر. الذهاب إلى التراث القديم رجوع إلى الوراء ومعارضة للزمن، وعود إلى عصر ذهبى، وإيقاف للتاريخ. لكل عصر إبداعه. بل إن العصر الذهبى قادم عندما تتقدم البشرية يومًا وراء يوم. ولا حدود له. فالكمال علة غائية لا تتحقق بل تدفع فقط إلى المزيد من الكمال. وهو موقف يدل على الاغتراب الحضارى. ويتصور أنه بالإمكان نزع الإنسان من حضارة وزرعه فى حضارة أخرى.

وقد يقوم على احتقار التراث، وإعطائه أقل مما يستحق، وتعظيم الآخر، وإعطائه أكثر مما يستحق. قد يكون الدافع عليه التعالى على بنى قومه وادعاء الجديد أو البحث عن هجرة أو عمل خارج البلاد، كما يبحث صاحب الموقف الأول عن عمل أو هجرة فى الخليج. وبدلاً من أن ينقل التراث القديم ويكرره ويعيد عرضه فإنه ينقل الوافد الجديد ويعرضه ويدافع عنه، نقلاً بنقل. ولا فرق بين النقل الأول والنقل الثانى إلا مصدر النقل، والموقف واحد، والعقلية واحدة، مع أن الوافد الجديد مثل الموروث القديم نشأ فى ظروف تاريخية معينة، تاريخنا القديم أو تاريخ الغرب الحديث. ولا يمكن فهمها إلا بالعودة إلى تاريخهما. فالشجرة بنت غرسها، والثمرة بنت شجرتها. وانتزاع الشجرة خارج تربتها لا تنبت فى تربة أخرى، وجنى ثمرة من غير شجرتها يجعل الحصاد بلا زرع، والثمار بلا جذور.

ويسهل حصار هذا الوافد الجديد الذى تتمثله النخبة من الموروث الذى تتبناه الجماهير فى أول أزمة تعصف بالبلاد، اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو ثقافية. فالأيديولوچيات العلمانية للتحديث لم تصمد أمام غوائل الزمن. فقد احتلت الأوطان، خاصة فلسطين فى العهدين الليبرالى والقومى. وازدادت الفوارق بين الأغنياء والفقراء فى العهدين الإقطاعى والاشتراكى. وكان التعليم محصورًا فى الطبقة

العليا فى العهد الليبرالى، وتسطح فى العهد الاشتراكى. واشتد الاستقطاب بين الوافد والموروث فى الثقافة العربية المعاصرة إلى حد الاقتتال بين الإخوة الأعداء فى الجزائر.

وهناك موقف ثالث، موقف الاجتزاء، اجتزاء أجزاء مختارة من الكل بناء على اختيار من الباحث، يقوم على الهوى والمزاج الشخصى. فالبعض يجتزئ من التراث القديم السلفية تمسكًا بالهوية واحتماء بها ضد موجات التقريب المعاصرة. والبعض الآخر يختار العقلانية الرشدية لرواجها فى الغرب، ومناهضته السلفية، والاحتماء بالعقلانية ضد مظاهر الخرافة والأسطورة فى الحياة اليومية وفى بناء الدول وحماية الأوطان. وفريق ثالث يختار الطريق الصوفى من أجل إعادة الإسلام إلى القلوب وكرد فعل على المظاهر والأشكال فى العبادات والمعاملات. وفريق رابع يختار الفقه، قانون العقوبات أو الأحوال الشخصية تطبيقًا لمبدإ الحاكمية وتطبيق الشريعة.

قد يستدعى من التراث ما يفيد وقد يستدعى ما لا يفيد. تجتزئ الأقلية ما تريد من عقلانية وعلمية ونزعة إنسانية. وتجتزئ الأغلبية الحرفية والنصية والشكلية والعقائدية، اختيار الفرقة الناجية ضد الفرق الهالكة. فيمتد القديم فى الجديد، وندخل فى معارك لسنا طرفًا فيها. ونحيى الخلافات القديمة والعصر فى حاجة إلى الوحدة والتآلف والحوار.

ويجتزئ فريق آخر من الوافد ما يريد بناء على رواج البضاعة وجدتها والتفرد باحتكارها، بل وتلقى العون من الثقافات التى تنتمى إليها. فيروج فريق الليبرالية نظرًا لحاجة العصر إلى الحرية، وآخر للاشتراكية نظرًا لحاجة العصر إلى تذويب الفوارق بين الطبقات، وثالث للبرجماتية، فما أكثر القول وأقل العمل فى حياتنا المعاصرة، ورابع للوجودية نظرًا لأن الفرد مطحون فى مجتمعاتنا ومحاصر بين طغيان الحكم وضنك المعيشة، بين الطغيان السياسى والضيق الاقتصادى.

ونظرًا لفقرنا فى المناهج الحديثة وحاجتنا إليها والغرب هو حضارة المناهج، يتبنى فريق التحليلية، وآخر البنيوية، وثالث الجدلية، ورابع التاريخية، وخامس الظاهراتية حتى عمت المناهج وانتشرت، وتمت التضحية بالموضوع فى سبيل المنهج. وأصبح الموضوع أداة لصدق المنهج، بدلاً من أن يكون المنهج أداة لكشف الموضوع. وفى النهاية، لا تستطيع هذه الاجتزاءات من الموروث أو من الوافد الاستجابة الفعالة

لتحديات العصر. وبقدر ما تتكاثر هذه الاجتزاءات تشتد أزمات الواقع، وتعصى على الاستجابة لها، مما يستدعى الحل الشامل والموقف الكلى. فلا وجود للجزئيات خارج كلياتها.

والموقف الرابع هو ضم الأجزاء المتشابهة من الموروث والوافد وقراءة أحدهما من منظور الآخر، جمعًا بين الثقافتين فى ثقافة واحدة تستجيب لمتطلبات الواقع وبصرف النظر عن مصدريهما. فعقلانية المعتزلة وابن رشد شبيهة بعقلانية عصر الأنوار، فالعقل مناط التكليف، والنظر أول الواجبات فى الموروث، والعقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس فى الوافد.

والعلم قيمة فى الموروث. وهو أول سؤال فى كل علم قديم: كيف أعلم؟ قبل ماذا أعلم؟ فنظرية المعرفة سابقة على موضوع المعرفة، والعلماء ورثة الأنبياء. لا فرق بين علم طبيعى وعلم رياضى وعلم إنسانى. العلم نسق معرفى بصرف النظر عن موضوعه. والعلم أهم ما يميز الوافد حتى إنه ادعى أن حضارته هى حضارة العلم، وغيره من الحضارات حضارة الدين. نشأ العلم فى الغرب بينما نشأ الدين فى الشرق.

والإنسان فى التراث القديم هو خليفة الله فى الأرض. كرمه الله فى البر والبحر، وإليه أرسل الأنبياء والرسل، وعليه تعمير الأرض والإصلاح فيها. والغرب يزهو أيضًا أنه صاحب النزعة الإنسانية. فيه تم الإعلان العالمى لحقوق الإنسان مرتين، بعد الثورة الفرنسية، وبعد الحرب العالمية الثانية. فما أسهل قراءة النزعتين فى رؤية واحدة.

هكذا فعل الطهطاوى وخير الدين التونسى، لا فرق بين ابن خلدون مونتسكيو. فابن خلدون هو مونتسكيو العرب، ومونتسكيو هو ابن خلدون الغرب. ولا فرق بين «حياة محمد» لمحمد حسين هيكل، وجان جاك روسو. فالإسلام دين الطبيعة والفطرة، كما طالب روسو. ولا فرق بين الاشتراكية الإسلامية والاشتراكية الغربية كما أنشد شوقى، «والاشتراكيون أنت إمامهم». وهو موقف لا يتجاوز قراءة كل ثقافة من منظور الآخر، وعادة ما يتهم بالتوفيق.

والمدقق للنظر يلاحظ الفروق بين المواقف المتشابهة. فالعقل الإسلامى قيمى، والعقل الغربى رياضى. والعلم الإسلامى شامل والعلم الغربى جزئى. والطبيعة

الإسلامية شعرية والطبيعة فى الغرب شيئية. فهو موقف يقضى على الاختلاف لصالح الاتفاق. والقراءة فى النهاية غير النقد والتحليل. القراءة الاستفادة من الثمار دون الجذور، والأخذ بالنتائج دون المقدمات، والتعامل مع الثقافات بمنطق الهوية وليس بمنطق الاختلاف.

والموقف الخامس والأخير هو إعادة البناء من أجل إعادة التوظيف طالما أن الموروث القديم ما زال حيّا فى القلوب، عائشًا فى وجدان الناس، ولكنه تكلس وتحجر. وإن حيًا فإنما يحيا على جوانبه السلبية التى تضر أكثر مما تنفع. وتكون إعادة البناء عن طريق رد التراث إلى الظروف التاريخية التى نشأ فيها لمعرفة: كيف تم توظيفه فى السابق؟ وما القوى الاجتماعية والسياسية التى أفرزته؟ وذلك من أجل القضاء على تحجره، ورد الحياة إليه. وبعد ذلك يعاد الاختيار بين بدائله طبقًا للقوى الاجتماعية الجديدة فى معارك التخلف والتقدم.

فإذا كانت الحاجة إلى العقلانية حاجة العصر فإنه يمكن استلهام المعتزلة وابن رشد من أجل ربط الحاضر بالماضى والتواصل الثقافى حتى لا تحاصر العقلانية المعاصرة، وتتهم بأنها وافدة من الغرب. ثم يتم تطويرها بناء على ظروف العصر فتصبح عقلانية جذرية تحلل وتنقد، ولا تركب وتبرر. لا تبدأ بمعطيات سابقة بل تبدأ بداية جذرية بلا معطيات إلا القدرة على البرهان.

وإذا كان العصر فى حاجة إلى علمية واتجاه نحو الطبيعة فإنه يمكن استدعاء المعتزلة وابن رشد وأصحاب الطبائع دفاعًا عن القانون الطبيعى وتطويرًا لمفهومى العلم والطبيعة، وتجاوزًا لمفاهيم العلية والطفرة والكمون والجواهر والأعراض. وبالتالى يمكن حماية الموقف العلمى الحالى من فكر علمى قديم انقطع، وعلم غربى حديث تواصل. إعادة البناء تعيد توظيف الفكر العلمى القديم بناء على معطيات العصر العلمية.

وإذا كانت حاجة العصر فى الدفاع عن الإنسان فإنه يتم استدعاء النزعة الإنسانية فى أصل العدل عند المعتزلة، والإنسان الأخلاقى فى علوم الحكمة، والإنسان العامل فى أصول الفقه، والإنسان الحى فى التصوف حتى يبزغ الإنسان وسط الطبيعيات والإلهيات القديمة دون قسمته، ميدان مستقل، لا يرد إلى ما هو أقل منه وهو البدن

ولا إلى ما هو أعلى منه وهو النفس. فيتم الحفاظ على حقوقه وواجباته. ويصبح بين عالمين، عالم المثال، وعالم الواقع. وتكون رسالته تحقيق المثال فى الواقع فيتحرك التاريخ. ولا يصبح الغرب وحده هو حضارة الإنسان والتاريخ. إعادة التوظيف هى إطلاق الطاقة، وتوليدها من مكوناتها القديمة، وإعادة استخدامها فى معارك العصر، استنفاداً للوسع، وإعمالاً للجهد بناء على القدرة الذاتية المطمورة فى الثقافة العربية.

***

obeikan.com

٥- كيف نتعامل مع الوافد الجديد؟(*)

لما كان الموقف الحضارى للمفكر العربى المعاصر موقفًا واحدًا سواء فى تعامله مع الموروث القديم أو الوافد الجديد فإن المواقف الخمسة التى ظهرت فى تعامله مع الموروث القديم تتجلى أيضًا فى تعامله مع الوافد الجديد.

الموقف الأول هو العرض بدعوى التعريف بالمذهب أو المنهج أو الشخص. وهو يعادل التكرار للموروث القديم. العرض هذه المرة للجديد سواء ابتداءً من الترجمة أو التأليف. وقد تم ذلك منذ قرنين من الزمان، وتأسيس الطهطاوى «مدرسة الألسن» مثل تأسيس المأمون «ديوان الحكمة» فى القرن الثانى الهجرى. وما زالت الترجمة مستمرة والعرض مستمرًا حتى تكاثرت المذاهب الوافدة، وانتشرت أعلام الوافد، فزاحم الوافد الموروث، وانقسمت الثقافة قسمين. لكلٍّ منهما لغته ومعاهده ومؤسساته وأنصاره. ولما كان الجديد أفضل من القديم وأكثر إغراءً لحداثته وبريقه أصبح مركز جذب لمجموع المثقفين. تبنته النخبة فأصبح أكثر فاعلية من خلال أجهزة الدولة التعليمية والثقافية والإعلامية. واحتار الناس أى المذاهب تختار لو شاءت التعامل مع الجديد، وأى الأعلام تقرأ، وأى المناهج تطبق ؟. تعددت التيارات والمذاهب، كل منها يعادل الآخر. واحتار الناس بين إطلاقية الموروث ونسبية الوافد، بين أمان الأول ومخاطر الثانى، بين يقين القديم وشك الجديد.

أصبح المفكر العربى ممثلاً للتيار الوافد ومدافعًا عنه ومعروفًا به لتوحده معه. لا يقبل نقده أو المساهمة فى تطويره. بل ولا يقبل أن ينافسه فيه أحد من أقرانه بعد أن احتكر الفتح. وكان أول من ولج الطريق، ودعا الناس إليه. فانتشرت المذاهب والتيارات والمناهج والاتجاهات الوافدة فى الثقافة العربية المعاصرة. ولا توجد ثقافة انتشرت فيها

(*) جريدة الاتحاد: ٢ فبراير ٢٠٠٢م.

هذه التيارات الوافدة قدر الثقافة العربية. ربما حدث ذلك نظرًا لقربنا الجغرافى من الغرب حول البحر الأبيض المتوسط، وربما للإرث الاستعمارى الطويل بعد أن بقيت ثقافته ولغته، وربما لطول اتصالنا بالغرب منذ القرن التاسع عشر وقيام دولة محمد على فى مصر وحركة التنظيمات فى تركيا. وأصبحت الاشتراكية والماركسية والليبرالية والقومية والوضعية والعقلانية والوجودية والبرجماتية والبنيوية والجدلية والتحليلية والتفكيكية والحداثة وما بعد الحداثة من الأدبيات الرائجة الذائعة الصيت فى الثقافة العربية المعاصرة، بل والحد الفاصل بين العلم والجهل.

والموقف الثانى هو الرفض المطلق. فالإنسان عدو ما يجهل. بل ويأتى الرفض من مجرد الشبهات والأفكار الشائعة دون معرفة بالأصول وقراءة للمصادر بلغاتها الأصلية أو من خلال الترجمات. فالماركسية مادية وإلحاد، والاشتراكية شيوعية، والعقلانية إنكار للمعجزات، والعلم جحد بالدين، والدفاع عن الإنسان بديل عن الإيمان بالله. والغرب فى مجموعه مادى ملحد كافر شيوعى عدمى، كما وصف الأفغانى فى «الرد على الدهريين».

والعارض للموروث القديم هو الرافض للوافد الجديد، والعارض للوافد الجديد هو الرافض للموروث القديم. تتباين المواقف فى الظاهر، وتتحدد فى الباطن فى جدل القبول والرفض، وانفعالات الحزن والفرح، والسخط والرضا، والضيق والانبساط. ويتم الرفض للوافد لأنه وافد دون تمحيص وتحقيق. فقد يكون الوافد مشابهًا للموروث وتقوية له.

والإسلام لم يرفض مراحل الوعى السابقة بل أكملها. والقدماء لم يرفضوا اليونان لأنهم يونان بل قبلوا المنطق كأداة للعلم. وأيدوا العقل والأخلاق. وأعطى أرسطو لقب المعلم الأول، وأفلاطون صاحب الأيد والنور، وسقراط أحكم البشر، وجالينوس فاضل المتقدمين والمتأخرين. واعتبر الفارابى المعلم الثانى، وابن الهيثم بطليموس الثانى. بل إنهم أكملوا الناقص. أكملوا أرسطو بأفلاطون حتى تكتمل لديه الإلهيات. بل إنهم أبدعوا نصوصًا لإكمال المذاهب، ووضعوها على لسان أصحابها تعبر عن مقاصدهم وإن لم يكتبوها بأيديهم مثل وصية فيثاغورث، وكتاب الثقافة لسقراط، وسر الأسرار لأرسطو، والروابيع ووصايا لتربية الأحداث

لأفلاطون، والرسائل المتبادلة بين الإسكندر وأرسطو، والإسكندر وأمه. وما قام به القدماء مع اليونان قاموا به أيضًا مع الفرس والهند. فأكمل مسكويه الحكمة الخالدة ترجمة وعرضًا وتطويراً. وعرض البيرونى ثقافة الهند مقارنًا إياها مع ثقافة اليونان والمسلمين.

لم يأخذ موقف الرافض للوافد إلا بعض الفقهاء بعد المعرفة به ومراجعته مثل «ترجيح أساليب القرآن على منطق اليونان». ولم يصل الحد إلى تحريمه إلا فى العصور المتأخرة مثل فتاوى ابن الصلاح فى تحريم الفلسفة وفساد منتحليها كما عبر ابن خلدون. فالرفض موقف الأغلبية قديمًا وحديثًا بصرف النظر عن المرفوض، الموروث القديم أو الوافد الجديد. يتجاوز الفكر إلى الانفعال، ويتخلى العقل عن دوره للإرادة.

والموقف الثالث هو أيضًا موقف الاجتزاء، ورد الكل إلى أحد أجزائه واقتطاف جانب دون الجوانب الأخرى، والانتقاء طبقًا لما يعجب وترك ما لا يعجب بناء على التقدير الشخصى أو المزاج أو التربية.

والمذاهب الأوروبية كلٌ لا يتجزأ. ترتبط فيما بينها بقانون الفعل ورد الفعل. الجزء يحيل إلى الجزء النقيض. ثم ينشأ مذهب ثالث يجمع بين النقيضين على نحو ثابت أو متحرك حتى تنتهى الدورة. ويبدأ جزء ثان يتلوه جزء نقيض. ثم تنشأ محاولات الجمع ثالثًا فى دورة ثانية دون استقرار على حال، ودون قدرة على رؤية البؤرة والمركز، وتصور الكل الذى يضم الأجزاء.

فقد بدأ الوافد الحديث فى الغرب بالثورة على الكل القديم الذى ورثه من أرسطو وبطليموس وآباء الكنيسة والمدرسين بعد أن اكتشف تعارض العقل والطبيعة، والإنسان الفردى والجماعى.

ويختار المفكر العربى ما جربه الغرب ثم تجاوزه إلى مذهب آخر. ويضع نفسه طرفًا ما فى معركة ليست معركته، فينتصر للعقلانيين ضد الحسيين، ويؤيد المثاليين ضد الواقعيين، ويدافع عن الرأسماليين ضد الاشتراكيين أو العكس.

ويظل الواقع العربى المعاصر عصيًا على أن يتكيف مع هذه الأجزاء المتناثرة فوق السطح بلفظها جميعًا كنتوءات ثقافية فيه. يظل يبحث عن قانونه الخاص ومكوناته

الثقافية الداخلية وليست الخارجية، مما يتطلب تحليلاً فى العمق، وتنظيراً مباشراً للواقع، وممارسة البحث والتحليل، وعدم الاكتفاء بالنقل والاجتزاء.

واحتار الناس من جديد بين الأجزاء التى يستبعد كلّ منها الآخر. ويترددون بين الكل القديم المغلق والأجزاء الجديدة المفتوحة. يعز عليهم ترك الكل، والتعويض بالأجزاء. كما يعز عليهم أخذ جزء جديد عوضًا عن الكل القديم.

ولم يحاول أحد المفكرين المعاصرين ما حاوله الفارابى من قبل فى الجمع بين أفلاطون وأرسطو، جمعًا بين ديكارت وبيكون، بين ليبنتز ولوك، بين كانط وهيوم، بين هيجل وماركس. وتركت الثقافة العربية المعاصرة تتجاذبها رياح المذاهب يمينًا ويساراً حتى سئمت الكل، ورفضت الكل. تنزوى فى القديم وتحتمى أو ترفضه أيضًا كما رفضت الجزء الجديد وتنتظر أن يأتيها الفرج من السماء، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

والموقف الرابع هو التأويل والقراءة والتكيف وإعادة عرض الوافد من خلال الموروث حتى يكون أكثر انتشاراً وذيوعًا إذا ما تم حمله على ثقافة أصيلة تخفف من حدة اغتراب الوافد. فبعد أن انتشرت الأجزاء وتم عرض المذاهب الوافدة ظلت محاصرة من الموروث العريض الذى تمثلته ثقافة الجماهير. تطفو فوق السطح، ولا جذور لها. فنشأت الرغبة فى التكيف مع الموروث ومد جذور الوافد فيه حتى تتسع وتتوسع رقعته فنشأت الوجودية العربية، والإنسانية العربية، والاشتراكية العربية أو الشخصانية الإسلامية والماركسية الإسلامية واليسار الإسلامى. وهو ما اتهم أيضًا به بأنه نوع من التوفيق بين الثقافتين، الرأس فى الوافد والجسد فى الموروث، النفس فى الوافد والبدن فى الموروث، السماء فى الوافد والأرض فى الموروث، مما يجعل الفكر هجينًا بين غربة الروح وألفة البدن.

كانت الغاية هى الترويج للوافد أكثر من بعث الموروث. كان الوافد هو الغاية والموروث هو الوسيلة، مع أن القدماء جعلوا الوافد هو الوسيلة والموروث هو الغاية فى تحديدهم العلاقة بين علوم الوسائل وعلوم الغايات، علوم العجم وعلوم العرب، علوم الأوائل وعلوم الأواخر. وانتهت المحاولات فى النهاية إلى شىء أشبه بالتمرينات العقلية والتدريبات الفلسفية. فلا هى أضافت شيئًا للمحمول الوافد ونقلته كما هو، ولا هى أضافت شيئًا للحامل الموروث وتركته كما تركه القدماء.

وإذا كانت مثل هذه المحاولات قد حلت قضيته ازدواجية الثقافة لدى المفكر، يد فى الوافد ويد فى الموروث إلا أنها لم تحل قضية ازدواجية الثقافة عند الناس التى فضلت التقابل بل والتعارض بين الوافد والموروث، واختيار أحدهما دون الآخر. وإذا كان الوافد موجوداً فى الموروث فلماذا لم يخرجه الموروث من داخله دون حاجة إلى إلقاء الضوء عليه من الوافد؟ وإذا كان الناس يختارون الوافد لأنه محمول على الموروث فلماذا لا يختارون الحامل دون المحمول ؟

والموقف الخامس والأخير هو تحويل الوافد من كونه مصدراً للعلم كى يصبح موضوعًا للعلم. وبهذه الطريقة يقل الانبهار بالوافد، ويرد إلى حدوده الطبيعية، ويعود إلى تاريخيته. وتنتهى أسطورة الثقافة العالمية التى توحد بها. فكل ثقافة تنشأ فى التاريخ، ولا تتحول إلى عالمية إلا إذا كان ميزان القوى العالمية فى صالحها، وكما هو الحال الآن فى الثقافة الغربية، وكما كان الحال فى الثقافة الإسلامية فى عصرها الذهبى، والثقافة اليونانية قبلها بعد فتوحات الإسكندر.

لقد تعود الغرب باستمرار على أن يكون ذاتًا عارفة وغيره موضوعًا للمعرفة. وكان مشروعه فى العصور الحديثة مشروعًا معرفيًا منذ «أنا أفكر فأنا إذن موجود» عند ديكارت، وقبله تحويل الطبيعة إلى رياضيات عند جاليليو وكبلر ونيوتن وإلى حركة وامتداد عند ديكارت. كان مثله الأعلى فى العلم نقطة أرشميدس أى الوجود الصورى. وأعطى لنفسه مزية «التنظير» على غيره من الثقافات الغارقة فى الحكمة العلمية مثل الثقافات الشرقية التى أثرت فى سقراط.

ودور هذا الموقف الخامس هو أن يتحول الغرب من كونه ذاتًا عارفة كى يصبح موضوعًا للمعرفة، وأن تتحول الحضارات اللا غربية من كونها موضوعاً للمعرفة إلى أن تصبح ذاتًا عارفة. ومن ثم تنقلب الأدوار. فيعرف الغرب صورته عند غيره، وكيف تصدر الأحكام عليه، كما أصدر هو الأحكام على غيره مثل «العقلية البدائية» و«الفكر البرى»، والتمييز بين العقلية السامية والعقلية الآرية، وحضارة الكهف وحضارة السهم. وتعرف الحضارات غير الغربية كيف تمارس عملية المعرفة، وتصدر أحكاماً على غيرها من الثقافات كالثقافة الأوروبية المجزئة المتغيرة غير القادرة على التصويب على بؤرة الأشياء. وعلى هذا النحو تكتمل كل حركات التحرر الوطنى، وتنتقل من

المستوى العسكرى إلى المستوى الاقتصادى إلى السنوى السياسى إلى المستوى الثقافى حتى تتعدد الثقافات وتتجاوز هذا التقابل بين ثقافة المركز وثقافة الأطراف وحتى ينتهى اعتماد ثقافات الأطراف على ثقافة المركز، وتتعدد الثقافات وتتفاعل فيما بينها فى حوار متكافئ، دون أن تكون ثقافة واحدة هى المبدعة دائمًا وغيرها هى المستهلكة دائمًا ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

* * *

٦- كيف نتعامل مع واقعنا المعاصر؟(*)

وإذا كان الواقع المعيش هو المكون الثالث للثقافة العربية المعاصرة فكيف يمكن التعامل معه وهو حاضر فى الحياة اليومية أكثر من حضور الموروث والوافد. هو البوتقة التى يتفاعل فيها المصدران الأولان. هو النص غير المدون، والسابق على التدوين.

الموقف الأول منه هو فرض النظريات عليه المستمدة من الموروث أو من الوافد بالرغم من عدم التطابق بين الواقع المعاش والنظرية المفروضة. فالموروث من الماضى نشأ فى عصر سابق، والواقع حاضر يحمل هموم العصر وأزمات الحاضر. والوافد طموح نحو المستقبل، لم يصل الواقع إليه بعد. وهو موقف يعطى الأولوية للنظرية على الواقع، ويتصور أن النظرية حلٌ سحرىٌ لأزمات الواقع. والواقع له قانونه الخاص الذى لا يمكن معرفته إلا بالغوص فيه، ومعرفة مكوناته، واستقراء النظرية منه، بدلاً من استنباطه من نظريات مسبقة موروثة أو وافدة.

وفى مقابل ذلك يأتى الموقف الثنائى. إذ تأتى الخطابة السياسية لتحل محل النظرية غير المطابقة، من الصورى المجرد إلى الصوتى الانفعالى. يقوم المثقفون والمنظرون بإسقاط النظريات غير المطابقة على الواقع. ويقوم السياسيون بإلقاء الخطب السياسية تعبيراً عن أزمات الواقع لتحريك الجماهير، وإعطائهم الأمل بأن الفرج قريب، وبأن عنق الزجاجة قد شارف على الانتهاء. فلا تفهم الجماهير نظريات النخبة، ولا تصدق وعود السياسيين.

والواقع عصى على الاثنين معًا. له بنيته المعرفية الخاصة به. ويحتاج إلى مثقف وطنى قادر على التخلى عن النظريات الجاهزة المسبقة التى تدعى تشخيص الواقع، وتصف مسار حركته، وقادر على نقد الخطاب السياسى المباشر، ولا يكون نصيره

(*) جريدة الاتحاد: ٩ فبراير ٢٠٠٢م.

وكاتبه أو ضحيته ومخاسره. هو المثقف العضوى القادر على التفاعل مع عصره، ومعرفة مرحلته التاريخية ومكوناته الداخلية، وأين يحضر الموروث فيه، وأين يشده الوافد نحوه. هو ابن الوقت بتعبير الصوفية، المثقف الملتزم بتعبير الستينيات الذى يحمل هموم الفكر وهموم الوطن، أشبه بالنبى والرسول الذى يحمل العلم والرسالة، ويحقق الأمانة. هو العالم أو الفقيه الذى يظهر على رأس كل مائة سنة ليجدد ثقافة الأمة.

والموقف الثالث، إذا ما عجز المثقف العربى أن يأخذ الموقف النظرى الملائم لطبيعة الواقع فإنه يتحول إلى الموقف العملى. فالمثقف يجمع بين النظر والعمل، بين الفكر والممارسة. ولما كان حريصًا على تغيير الواقع فإنه يبدأ به بالمعارضة العلنية والجهر بالقول، وبيان المسافة بين المثال والواقع. وهى معارضة مشروعة فى نظام ديمقراطى طبيعى من خلال وسائل الإعلام الرسمية، ومثله الكثير فى الصحافة العربية. فالصراخ لا يضر، والنقد لا يصيب بأذى ما دام لا يتعدى حدود الكلام. أما إذا تحول إلى فعل فإنه يصطدم بالسلطة، ويصبح الكلام خروجًا على القانون، ومساسًا بأمن الدولة. ويتهم المثقف بالتآمر على قلب نظام الحكم.

عندئذ يتحول البعض إلى العمل السرى، «عمل دون كلام»، وتحت الأرض، وليس فوق الأرض، فالتهمة قائمة قائمة. والأولى أن يكون لها رصيد. وفى مجتمع تكون لأجهزة الأمن فيه عيون فى كل مكان، ترصد كل شىء، ما فوق الأرض وتحتها، فإنه سرعان ما يتم الكشف عن هذه الخلايا السرية. ويتم تفكيكها وتقديمها للمحاكمة بتهمة تكوين نظام غير مشروع، والعمل أيضًا على قلب نظام الحكم.

ومن ثم ينتهى المثقف العربى إلى مأزق. فلا النقد العلنى مسموح به إذا تجاوز الحد، ولا التنظيم السرى مشروع إذا ما ضبطته أجهزة الأمن. لا القول دون فعل مقبول، ولا العمل دون قول مقبول. فلا طريق أمامه إلا العلم على الأمد الطويل، والإعداد للتغير الاجتماعى فى جيل قادم. ينتهى المناضل ويستمر العالم. وينتهى المثقف ويبدأ المفكر. فالعلم الرصين بديل عن استحالة تغيير الواقع والتأثير فيه. وهو الذى يبقى بعد أن تموت النظرية السياسية وتضمر وبعد أن تتبخر، ويظل الواقع عصيبًا على الاثنين. هذا

العلم الرصين هو رصيد الخطابة السياسية للأجيال القادمة للتعمق والتعلم من خبرات الأجيال الماضية. وقد تأتى أجيال أقدر على تحليل الواقع برؤية جديدة ومنهج مغاير ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

فإذا ما انسد الطريق أمام التحليل النظرى أو الممارسة العملية. لم يبق أمامه إلا الهجرة إلى الخارج أو الهجرة إلى الداخل. وتعنى الهجرة إلى الخارج مغادرة البلاد، وفك الارتباط بينه وبين الأوطان، والعمل فى الخارج، والاطمئنان على حياته الدنيا بعد أن استعصى عليه العمل للآخرة. والهجرة سنة قديمة إذا ما ضاقت الأرض بمن عليها. وأرض الله واسعة. ويزيد الرزق ويكثر العمل، وتكثر الصدقات والمساهمة فى أعمال البر والخير مثل أغنياء الصحابة.

أما الهجرة إلى الداخل فتعنى الانغماس فى الحياة، وترك الرسالة، والتكيف مع الواقع بل والانغماس فيه، من الرسالة إلى المهنة، ومن القضية إلى الصفقة، ومن العطاء إلى الأخذ، ومن الآخرة إلى الدنيا. فقد تغير الزمن. وأصبح الصحابة الجدد هم رجال الأعمال. العصر عصر الانفتاح فى الداخل، والعولمة فى الخارج، بيع القطاع العام، وتشجيع القطاع الخاص. وفى الوطن رزق للجميع. ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، دون الهرب للخارج مثل نواب القروض. ودون تهريب لرءوس الأموال، بل لعمل صناعات وطنية تشجيعًا لرأس المال الوطنى.

ويمكن تأسيس شركات لتوظيف الأموال، وتجميع فوائض المحسنين وأموال الأتقياء الذين لا يودون إيداع مدخراتهم فى البنوك الربوية. فشركات توظيف الأموال والبنوك الإسلامية لا تقوم على الربا ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، ولكنها تقوم على المرابحة: المشاركة فى المكسب والخسارة. وليس عيبًا أن تضخمت شركات توظيف الأموال وتأييدها من رجال الحكم والإدارة بل والاستدانة منها لاستيراد المواد الغذائية اللازمة لشهر الصوم حيث يزيد معدل الاستهلاك. وتتم المصاهرة بين أبناء الشركات وبناتها. ويباركها مشايخ الإسلام البارزون. وتعطى كشوف البركة لرجال الدولة وأصحاب الحظوة. وبعد أن تتضخم وتصبح دولة داخل دولة، تنقض عليها الدولة وتقضى عليها، دفاعًا عن أحادية السلطة فى السياسة

والاقتصاد. ويكون المواطنون الفقراء الذين لا حول لهم ولا قوة هم الضحية بعد أن طُحنوا بين مطرقة الدولة وسندان شركات توظيف الأموال، وعادوا فقراء كما كانوا بلا صرف ولا مدخرات.

والموقف الرابع هو عجز المفكر عن أن يفرض على الواقع نظرية مسبقة أو يساهم فى الخطابة السياسية صناعة أو ممارسة أو يشارك فى المعارضة العلنية أو ينضم إلى المعارضة السرية أو يهاجر إلى الخارج أو إلى الداخل فيتوقف عن الفعل. فقد انسدت جميع الطرق. يهرب إلى الماضى ويستدعى الذكريات، وينكر تاريخه. يحن إلى الماضى، ويتأسف على الحاضر. فإذا كان قادراً على العمل، وما زال لديه بعض الأمل من أجل توارث الخبرات، ومخاطبة الأجيال القادمة فإنه يدون سيرته الذاتية. فحياته عصره. وإن وصل التشاؤم به حدّا يمنعه عن الحركة فى أى اتجاه فإنه يصاب بالغم والهم، ويعمه الاكتئاب، ويتوقف القلب عن النبض. فالحياة لم تعد لها قيمة أو هدف. وهو ما يحدث عادة للشعراء والفنانين وأصحاب الحساسية المرهفة. نهاية الفرد هى نهاية عصر. ونهاية عصر تتجلى فى نهاية فرد.

والحقيقة أن التعامل مع الواقع لا يأتى عن طريق فرض النظريات المسبقة عليه ولا تغطيته بطبقة رقيقة من الخطابة السياسية أو المعارضة العلنية أو السرية بهدف إيجاد البديل السياسى أو الهجرة خارج الأوطان أو داخلها، عن بعد أو عن قرب، أو اليأس والإحباط والتوقف فى المكان بل عن طريق تحليل مكوناته وتفاعلاته الداخلية وميزان قواها.

ويتم ذلك عن طريق تحليل لغة الحياة اليومية، وملاحظة عادات الناس وسلوكهم، والمشاركة الفعلية فى تجاربهم الحية. فالمعرفة عن طريق المشاركة تساعد على إدراك تفاعلات الواقع ومكوناته الرئيسية. كما تقوم على تحليل كيفية عمل المؤسسات وإداراتها. فالمؤسسة تجسيد للواقع وتعبير عنه. والمعاناة من البيروقراطية دافع على البحث عن جذورها فى الموروث التراثى القديم. كما يتم تحليل الأعمال الأدبية الشعرية والروائية لمعرفة كيف يستطيع الأدب أن يصور مكونات الواقع وتفاعلاته. والأمثال العامية، والأغانى الشعبية، والمواويل والأزجال، كلها تعكس الأوضاع الاجتماعية. فإحساس الأديب هو نفسه رؤية المفكر. كما يتم تحليل الخطاب الإعلامى المرئى

والمسموع. فأدوات الاتصال تكشف أيضًا عن كيفية التأثير فى الواقع والدخول إليه. كما تكشف الكتب والمقررات المدرسية عن كيفية تكوين التلاميذ والطلاب ومناهج التعليم التى يغلب عليها النقل والحفظ وتكرار ما هو معروف سلفًا. كما يكشف تحليل الخطاب الدينى والخطاب السياسى عن بنية خطاب واحد يعتمد على السلطة، سلطة الدين أو سلطة السياسة، تطلب من المواطنين الطاعة والولاء وحسن السير والسلوك.

وعلى هذا النحو يمكن التعرف على شروط الخطاب الثقافى العربى الجديد القادر على مخاطبة الجماهير على مختلف مستوياتهم الاجتماعية. ففيه الموروث القديم الذى ما زال مؤثرًا فى رؤى الناس وسلوكياتهم. وفيه الوافد الجديد الذى ما زال يبهر الأجيال الشابة بمصطلحاته وقيمه وقدرته على التحريك والحث على التأمل والتفكير. وفيه الواقع المعايش الذى تغوص الجماهير فيه وتطلب العون للخروج منه. هو الخطاب الذى يجمع بين العلم والثقافة، بين خطاب النخبة وخطاب الجماهير، بين الفكر والسياسة. هو الخطاب الذى يسمعه كل الناس فيجد فيه كل فرد منهم ما يلبى حاجته ويستدعيه للاستجابة إليه.

***

٧- الاختراق الثقافى(*)

وكما يحاول الجناحان الشرقى والغربى لمصر الكسيرة وراثتها، يحاول البعض من أهلها اختراق قلبها لإنهائها والقضاء عليها. ويقوم بذلك بعض من يبحثون لهم عن دور جديد فى مصر الجديدة الممسوخة، وفى نظام العالم الجديد ذى القطب الواحد. ينتسبون إلى النخبة أو الطبقة المتوسطة. فالنخبة طوال تاريخها تعيش على مساندة الأجنبى، والتعالى على أهل البلاد من العمال والفلاحين والطبقات الدنيا بل والمتوسطة. تتكلم اللغات الأجنبية، الفرنسية والإنجليزية. وهى ليست مثل باشوات مصر الوطنيين الذين قاموا بعمليات بناء الدولة ثم تحديثها والذين عرضوا على إسماعيل سداد ديون مصر حفاظًا على استقلالها. وهم الذين قادوا ثورة ١٩١٩، وكونوا العصر الليبرالى قبل ١٩٥٢م. بل هى نخبة من رجال الأعمال، وطبقة من الأغنياء الجدد. لا هم لها إلا الربح السريع عن طريق المضاربة فى العقارات، والاتجار بالعملة الأجنبية فى السوق السوداء، وتهريب الأموال وقروض البنوك بلا ضمانات، والرشوة والفساد كوسيلة للتحايل على القانون، وقيم الاستهلاك ومظاهر البذخ والترف فى القصور الجديدة وعلى شواطئ البحار.

كما يتم الاختراق عن طريق الطبقة المتوسطة التى تريد أن تؤدى دورًا بعد أن حوصرت بين الطبقة العليا والتى لم تعد قادرة على الوصول إليها، والطبقة الدنيا والتى تتعالى عليها. وهى التى لم تعد قادرة على الانخراط فى طوابير الانتظار لنيل السلطة والثروة والجاه عن طريق الحزب الحاكم. وهى التى لم تواتها الشجاعة الكافية لتنضم إلى أحزاب المعارضة العلنية المسالمة المستأنسة أو السرية العنيفة. والطبقة المتوسطة طوال عمرها انتهازية. توهم الطبقة الفقيرة بأنها تدافع عن حقوقها. وتوحى إلى الطبقة العليا بأنها تدافع عن مصالحها. فتكسب ثقة الفقراء، وتتكسب من ثروة الأغنياء. تشعر

(*) جريدة الاتحاد: ١٠ يوليو ٢٠٠٤م.

بالنقص أمام الآخر الأجنبى خاصة إذا انسد طريق الصعود الاجتماعى الوطنى. فتقلده فى أفكاره ومُثله وقيمه وأساليب حياته لعلها تنعم بالهجرة إلى أراضيه فى الخارج أو تكون ممثلة لشركاته ومصالحه فى الداخل باسم «محمد موتورز» أو «منصور شيفورليه». وهى بورجوازية جديدة وليست أصيلة. اغتنت منذ الانفتاح الاقتصادى فى منتصف السبعينيات. تلبس قشرة الحضارة والروح جاهلية. ومنهم من أثرى فى بلاد النفط، وعاد بسلوك أهلها فى ثنائية حادة بين التمتع بالدنيا والتعويض عنها بالآخرة، والإسراف والبذخ فى الدنيا، ورعاية الفقراء والمعوزين رغبة فى النجاة والجزاء فى الآخرة.

ويتمثل الاختراق الثقافى فى ثلاثة تيارات متداخلة. الأول أنصار العولمة. فالعصر عصرها، والتاريخ تاريخها، والقانون قانونها. العالم قرية واحدة. والدولة الوطنية لا لزوم لها لأنها عائق بإرادتها المستقلة، وحواجزها الجمركية، وبسياساتها فى التخطيط، ودعم المواد الغذائية عن الدخول فى قوانين السوق، والاستثمار، والمنافسة، والربح، ورأس المال العالمى، والمصارف الدولية، وبورصات الأوراق المالية. لقد انتهى عصر الاستقطاب، وأصبحت أمريكا هى القوة الوحيدة فى العالم، والرأسمالية نهاية التاريخ. وصراع الحضارات يخيف الشعوب المتخلفة التى ما زالت ترزخ تحت نظم الطغيان والتسلط والقهر من العدوان عليها، وتكرار النموذج العراقى على سوريا وإيران وليبيا بالرغم من تحولاتها الأخيرة، من النقيض إلى النقيض، والسودان بسبب دارفور، والسعودية بسبب القتلى الأمريكيين. وقد ينضم بعض الماركسيين القدماء إلى الجوقة الجديدة باسم الحتمية التاريخية، وضرورة التأقلم مع الواقع الجديد، بعيدا عن الأيديولوچيات القطعية التى أدت إلى انهيار المعسكر الاشتراكى فى المركز والأطراف. والقطاع الخاص جاهز، والبنوك الخاصة مستعدة، وثورة الاتصالات تقرّب البعيد.

والتيار الثانى هم الليبراليون الجدد الذين بدأت كتاباتهم فى الظهور، ويعبرون عن أنفسهم فى القنوات الفضائية الشهيرة الذائعة الصيت. لقد نعمت البلاد بالليبرالية سابقًا. وأقيمت أول محاولات للتصنيع فى عهدها. ونعمت بالحريات العامة، وحظيت بالتعددية الحزبية. وكانت لها حكومات مسئولة أمام البرلمان، ودستور مثل معظم دساتير العالم. وضعها فقهاؤها الدوليون الذين وضعوا معظم الدساتير فى

الوطن العربى فى عصره الليبرالى. وهذا يتطلب الاعتماد على القطاع الخاص، والتخلص من بقايا القطاع العام، والتخلى عن التخطيط، واتباع قوانين السوق، المنافسة والربح، وإنشاء الجامعات الخاصة القادرة على تخريج جامعيين على دراية باللغات الأجنبية، وبالحواسب الآلية وبعلوم إدارة الأعمال. ويبدأ ذلك من الصغر بالتعليم الأجنبى الخاص، من المهد إلى اللحد، لمواجهة التعليم الدينى الخاص. ولا ضير فى عودة الملكيات القديمة. فالملكية الدستورية خير من الجمهورية الرئاسية. والحنين إلى الليبرالية أعمق فى التاريخ وأبعد فى الزمان من الحنين إلى القومية الأحدث عهدًا أو الحنين إلى الخلافة الراشدة التى طال عليها العهد، وأصبحت حلمًا ومجرد خيال. ومصر جزء من البحر الأبيض المتوسط. وطالما نادى مفكروها بأن ثقافتها ثقافته، وبأن ثقافة اليونان جزء من تكوينها. والغرب الحديث هو ورثة اليونان القديم. ومن ثم يعود شعار إسماعيل من جديد «مصر قطعة من أوروبا»، وكما عبر عن ذلك طه حسين فى «مستقبل الثقافة فى مصر».

والتيار الثالث شرعى قانونى، واقعى سياسى. لا يرى فى العداوة بين الشعوب مبررًا حتى ولو اعتدى بعضها على بعض، واحتل بعضها أراضى البعض. وهو التيار الذى يدعو إلى التطبيع مع إسرائيل. فالسلام خيار إستراتيجى، وإسرائيل وجدت لتبقى. عقدت معها مصر معاهدة سلام فى ١٩٧٩م، وبينهما اعتراف متبادل. فلم يعد هناك داع لمعادة إسرائيل طبقًا للقانون الدولى أو لتهريب السلاح من أنفاق غزة أو دعم «الإرهاب» الفلسطينى أو الانشغال بالقضية الفلسطينية برمتها. يكفى أربع حروب دخلتها مصر بسببها. والعنف ليس وسيلة لتحقيق أغراض سياسية. وكل عنف هو إرهاب بالضرورة، لا فرق بين مقاومة مشروعة وعنف غير مشروع. ولا تمييز بين إرهاب الأفراد وإرهاب الدول، ولا ضير فى الاتجار معها، وتوريد الأسمنت والرمل والحديد لبناء الجدار العنصرى أو المستوطنات أو بيع الغاز الطبيعى أو النفط الذى تسير به العربات المصفحة والطائرات. فالتجارة شطارة. والكسب لا يفرق بين عدو وصديق، ولا ضير من الاستفادة منها فى زراعة الصحراء بما لديها من خبرات فى التعمير والاستيطان والرى واستصلاح الأراضى بصرف النظر عن شائعات الأوبئة. فإسرائيل نموذج يحتذى به فى العلم والتحديث والتقدم خاصة وأن مجموع العرب أقل منها. والتطبيع قادم قادم فلِمَ التأخير والإبطاء؟ قد يتجاوز الزمن العرب. فيعيش

العرب فى زمان غير زمان العالم. ويظلون فى زمانهم قابعين، وعقارب ساعتهم واقفة على زمن قديم مثل أهل الكهف.

وهو تيار مناهض للواقع والتاريخ. يجعل الجلاد ضحية والضحية جلاداً، والمعتدَى عليه هو المعتدى، والمظلوم ظالما، والظالم مظلومًا. يظن أن توقف العرب عن الحركة فى الزمان دائمَ. وإذا تحرك فإن العرب يتحركون فى مسار غيرهم. يريد أن يكون له السبق فى موجة يظنها قادمة مثل من يصيد فى أعالى البحار. يتذكر حقوق الإنسان، وينسى حقوق الشعوب. وحقوق الإنسان عند الغير، عند الأبرياء من جراء العمليات الاستشهادية، وينسى حقوق الإنسان الفلسطينى، ضحية الصواريخ، والقصف، وهدم المنازل، وتجريف الأراضى. يعمل للعاجل دون الآجل، ويحرص على الكسب السريع دون اعتبار الخسارة القادمة. يعمل على الأمد القصير، وليس على الأمد الطويل. لا يستوعب دروس التاريخ. فقد مكث الصليبيون فى الشام فى بعض إماراتهم مائتين وخمسين عامًا. ومكث الاستعمار الفرنسى فى الجزائر أكثر من قرن وثلث. وبقيت بريطانيا فى الهند منذ القضاء على إمبراطورية المغول. وظل استعمار جنوب أفريقيا أكثر من ثلاثة قرون.

إن هذه التيارات الثلاثة التى يتمثلها بعض أفراد الطبقة العليا والطبقة الوسطى لهو اختراق فعلى للثقافة الوطنية المصرية. ومع ذلك ما زالت تجد سدًا منيعًا لانتشارها فى الوطنية المصرية التقليدية وفى الوعى الوطنى المصرى عبر التاريخ. تلفظها التيارات الأساسية فى الثقافة الوطنية، التيار الإسلامى، والتيار القومى، والتيار الليبرالى الوطنى، والتيار الماركسى. وكلها ترفض التطبيع مع الكيان الصهيونى. ويتصدر التيار الإسلامى المقاومة والعمليات الاستشهادية مع التيار القومى، والماركسيون والليبراليون ما زالوا يعتبرون الكيان الصهيونى عنصريًا عدوانيًا قاهرًا للشعب الفلسطينى.

إن بعض فئات الطبقات الاجتماعية التى حدث من خلالها الاختراق الثقافى لمصر، العليا والمتوسطة، طول عمرها منفصلة عن المصالح الوطنية العليا قبل العولمة وبعدها. يجدون فى الخارج أعظم حليف ضد الداخل. لقد خرج المتعاونون من المصريين مع الحملة الفرنسية بخروج الحملة، واستقروا فى فرنسا. كما خرج المصريون الذين كانوا يعملون مع الشركات الأجنبية بعد تأميم قناة السويس وتمصير الشركات الأجنبية،

واستقروا فى الخارج . كما هاجر إلى الخارج الإقطاعيون الكبار من الطبقة العليا بعد الثورة وتطبيق قوانين الإصلاح الزراعى عليهم فيما سمى «جرحى الثورة» .

وكما لفظهم الداخل يلفظهم الخارج أيضًا . فالأجنبى فى النهاية هو الأجنبى مهما بلغت درجة الاندماج للطبيعة العنصرية للمجتمعات الجديدة التى هاجر إليها وفى مقدمتها لون البشرة وحتى فى المجتمعات التى تدعى أنها تعددية أو التى تدعى أنها «إناء الانصهار» لكل الأجناس والأعراق والملل والطوائف . ويكونون مثل القوات اللبنانية فى الجنوب فى الشريط الحدودى المتحالفة مع إسرائيل . فلم تصمد أمام المد الوطنى والمقاومة الوطنية . فلا هى احتفظت بشرف المواطنة ولا هى تم قبولها وتمثلها فى الكيان الصهيونى . والمقاومة الوطنية لا تأتى على أكتاف أعداء الوطن . وسيظل بين هذه الفئات من الطبقات العليا والمتوسطة من ناحية والجماهير من ناحية أخرى خُلف بل عداء مستحكم . فلا الجماهير قادرة على الاعتراف باختياراتها . ولا هى قادرة على العودة إليها . وماذا ينفع المواطن لو كسب العالم وخسر نفسه؟ وماذا يفيده لو كسب كل شىء وخسر وطنه؟

* * *

٨- هل تقوم الثقافة على ساق واحدة؟(*)

الثقافة فى مصر هى ركيزتها الأولى منذ دعوة التوحيد عند إخناتون، وذكرها فى القرآن بأنها بلد الخير والأمان، وفى الحديث بأنها بلد المصاهرة والجهاد والنضال والمقاومة «جندها خير أجناد الأرض وشعبها مرابط إلى يوم القيامة». ثم تعدد الكتابات حول «فضائل مصر» حتى نهضة مصر عند الطهطاوى «فليكن هذا الوطن مكانًا لسعادتنا أجمعين نبنيه بالحرية والفكر والمصنع» و«شخصية مصر» لجمال حمدان حول عبقرية المكان.

لم تكن الثقافة فقط «روح الشعب»، تحفظ كيانه، وتحافظ على وحدته، وتمده بخبرته التاريخية المتراكمة فى أمثاله العامية وسير الأبطال الشعبيين. بل كانت أيضًا اختيار الدولة، ودعامة نظامها السياسى. فلا يستطيع نظام سياسى أن يحكم فى مصر دون رؤية ثقافية ومشروع ثقافى تتبناه أجهزة الدولة مباشرة وبخاصة المؤسسات الثقافية. يشارك فيه الإعلام الذى هو جهاز الدولة فى توجيه الرأى العام، والسيطرة على حركة الشعب. لذلك كانت الثقافة ثقافة سياسية بالضرورة من جهة الدولة، وثقافة شعبية من جهة الناس.

كانت الثقافة فى مصر عبر تاريخها الطويل تتكون من روافد ثلاثة. الأول الوافد الخارجى. فمصر بلد مفتوح الحدود، فى علاقات وتفاعل مع الحضارات المجاورة، فى الشمال عند الآشوريين والبابليين فى الشام والعراق، وفى الجنوب فى بلاد بنط والنوبة والسودان. وفى فترات قوتها كانت تعطى أكثر مما تأخذ كما أعطت اليونان فى العهد الفرعونى، وأخذت منهم فى العهد العربى الإسلامى. كما أخذت من فارس والهند. وفى فترات ضعفها كانت تأخذ أكثر مما تعطى كما تأخذ الآن من الغرب الحديث.

(*) جريدة الاتحاد: ٢١ أغسطس ٢٠٠٤م، جريدة الزمان: ٢١ أغسطس ٢٠٠٤م.

واصطلح على تسمية هذا العنصر الأول الوافد. كما عرف أيضًا باسم الترجمة. عندما تكون مصر قوية فإنها تترجم من منطلق معرفة الآخر من أجل احتواء ثقافته وإعادة توظيفها لصالح البقاء والنهضة. وهو ما سماه القدماء النقل. ولا يعنى مجرد ترجمة عن طريق المطابقة، مطابقة النص العربى بالنص اليونانى، كلما دقت المطابقة عظمت الترجمة. بل كان نقل القدماء إبداعًا، لا يهدف إلى إيجاد نص عربى مطابق للنص اليونانى بل إعادة كتابة النص اليونانى لمتلقى جديد، هى الثقافة العربية الإسلامية ومن منظورها، اعتزازًا بالوافد دون إهماله واستبعاده، وتأكيدًا للذات المنفتحة على الثقافات المجاورة دون تصلب أو تشدد أو نعرة ثقافية بدعوى الاكتفاء الذاتى وأن «القرآن» به كل شىء و«ترجيح أساليب القرآن على منطق اليونان». لم يكن الهدف نشر الثقافة اليونانية واستعمالها لمحاربة الثقافة العربية الإسلامية وحصارها لأنها أكثر تخلفًا وأقل تقدمًا بل من أجل تطويرها وتنميتها وتحديثها. فالوافد وسيلة، والموروث غاية. وكان اختيار الأعمال المنقولة طبقًا لحاجة المجتمع العربى الإسلامى الجديد للفلسفة والعلم. فنقلت أمهات الأعمال الفلسفية التى بلغت ذروتها فى أعمال أرسطو، وأمهات الكتب العلمية التى بلغت ذروتها فى المؤلفات الطبية لجالينوس. كان المجتمع الجديد فى حاجة إلى العقل والعلم. وكانت لديه الحرية الكافية لذلك. كان النقل الأول تعبيرا عن موقف حضارى أصيل دون إحساس بالنقص أمام المنقول. واستمر ذلك حتى عصر الترجمة الثانى، عصر الطهطاوى الذى كان يعيد بناء الوافد طبقًا لمفاهيم الموروث. فالعقلانية الغربية هما التحسين والتقبيح عند المعتزلة، وقانون نابليون (الشرطة) تعادل الشريعة، ومونتسكيو هو ابن خلدون فرنسا، وابن خلدون هو مونتسكيو المسلمين. والتاريخ الغربى جزء من التاريخ العربى الإسلامى وامتداد له.

ثم جاء عصر الترجمة الثالث فى النصف الثانى من القرن العشرين سواء فى مشروع الألف كتاب الأولى أو الألف كتاب الثانية أو المشروع القومى للترجمة. ومن منطلق الضعف والإحساس بالنقص أمام الوافد تمت الترجمة طبقًا لنظرية المطابقة أى نقل النص الأجنبى فى نص عربى مطابق. الهدف منه الترويج للوافد، وإيجاد ثقافة بديلة عن الثقافة الموروثة بل ومن أجل حصارها حتى تتحول الثقافة الوطنية من رافدها الموروث الذى يفرّخ الجماعات الإسلامية خصوم الدولة، والمعارض السياسى الرئيسى لها إلى رافدها الوافد. كان المهم هو الكم لا الكيف، وإغراق السوق الثقافى بأكبر قدر

ممكن من التيارات الحديثة حتى لا تظل الثقافة الإسلامية هى الوحيدة المطروحة على الساحة. فالوافد بديل عن الموروث، وليس أداة لتطويره. وانتشرت فى الاتساع على حساب العمق. وكانت أقرب إلى الترجمة الحرفية خصوصا فى بعض الأعمال «الحديثة». لا تعيد كتابة النص من منظور المتلقى كما كان القدماء يفعلون. صحيح أنها نافذة مفتوحة على الثقافة الغربية، وتعريف بتياراتها المختلفة فى خطاب ما بعد الاستعمار، وخطاب الحداثة، وخطاب المرأة، وخطاب الاستشراق. تنقل عن الغرب أكثر مما تنقل عن الشرق. فالثقافة ثقافة الغرب. والعولمة عولمة الغرب الأوروبى والغرب الأمريكى. والقوة قوة الغرب. والاختيار السياسى هو اختيار الغرب وكما وضح فى «مشروع الشرق الأوسط الكبير». وقد ينتهى المشروع القومى للترجمة إلى عكس ما يهدف إليه. إذا ما قرأه الشاب المثقف الجديد ووجد أنه لم يفهم الكثير منه إما لغرابة موضوعاته عليه، أو لوعورة أسلوبه فإنه سرعان ما يهرب إلى ابن تيمية وابن القيم. فيجد ما أنتجه القدماء خيراً مما ترجمه المحدثون. والاغتراب عن الوافد يؤدى إلى مزيد من الألفة للموروث.

إن الترجمة وحدها أى نقل الوافد إنما هو عنصر أول للإبداع الثقافى. ولو اقتصرت عليه تكون الثقافة عرجاء، تقوم على ساق واحدة، أو عوراء ترى العالم بعين واحدة، أو ضيقة تتنفس برئة واحدة. لذلك لزم العنصر الثانى وهو النشر. ليس نشر التراث السلفى المحافظ الذى أصبح هو الغالب على التراث الإسلامى كله، وتروج له دور نشر التراث المدعمة من المؤسسات السلفية المعاصرة بما فى ذلك شركات توظيف الأموال، بل التراث العقلانى الذى نشره طه حسين عندما كان مسئولاً عن الثقافة فى الجامعة العربية مثل «المغنى فى أبواب التوحيد والعدل» للقاضى عبد الجبار المغربى، وتراث ابن رشد العقلانى كله الذى أعده للنشر محمود قاسم فى دار العلوم، والتراث الأصولى الذى يقوم على رعاية المصالح العامة مثل «الموافقات» للشاطبى الغرناطى الأندلسى. يمكن نشر كل ما نحتاج إليه فى تحدياتنا المعاصرة وتأصيله فى التراث القديم، كل ما يتعلق بالتراث الفقهى فى التنمية وأن الأرض لمن يفلحها، وفى الملكية العامة مثل الركاز وهى المعادن فى باطن الأرض والمياه والغابات. ويمكن أيضًا نشر كل ما يتعلق بمقاصد الشريعة، الحياة والعقل والعلم والعرض والثروة الوطنية، وكل ما يتعلق بحقوق الإنسان وحقوق المرأة والمواطنة والمجتمع المدنى والرقابة على الأسواق

وجهاز الدولة عن طريق الحسبة، وكل ما يتعلق بالبيعة والاختيار والعقد. ولا يترك النشر فقط للهيئة العامة للكتاب أو للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بل يتم داخل وزارة الثقافة بوصفه جزءًا من نشاط مؤسساتها فى المشروع القومى للنشر بالإضافة إلى المشروع القومى للترجمة حتى يتفاعل الوافد مع الموروث من أجل إبداع حضارى يحافظ على جوهر الموروث وجدة الوافد. ويبقيان معًا على أصالة الموروث ومعاصرة الوافد. وبهذه الطريقة تستطيع الثقافة أن تسير على ساقين بدلا من أن تكون عرجاء تسير على قدم واحدة، من المستقبل إلى الحاضر كما يفعل الوافد، أو من الماضى إلى الحاضر كما يفعل الموروث.

ومع المشروع القومى للترجمة والمشروع القومى للنشر يأتى المشروع القومى للتأليف أو الإبداع. وهو الحصيلة الطبيعية لتفاعل الوافد والموروث فى ظروف العصر وتحدياته. فالوافد نقل عن المحدثين، والموروث نقل من القدماء. وكل منهما نقل. ودون تفاعل المستقبل والماضى فى أتون العصر وناره يتصادمان كما هو الحال الآن فى حالة الاستقطاب الشديد التى يعيشها هذا الجيل بين السلفية والعلمانية والذى يصل إلى حد الحرب الأهلية بين الأخوة الأعداء والتى كلفت حتى الآن ما يزيد على مائة ألف شهيد فى الجزائر. وما زالت الخطورة على فلسطين والعراق وسوريا وغيرها من الساحات العربية. لم تستغرق الترجمة الأولى فى عصر المأمون أكثر من جيلين، القرن الثانى الهجرى، نشأ بعدها الإبداع عند الكندى فيلسوف العرب فى القرن الثالث. ونحن نترجم فى نهضتنا الحالية منذ قرنين من الزمان أى على مدى أكثر من أربعة أو خمسة أجيال، وما زال الإبداع الفكرى متأخرًا، يلهث وراء الإبداع الأدبى والفنى. لقد طالت الترجمة أكثر من اللازم لأنها قامت بهدف نقل المعلومات، ومزاحمة الموروث، وليس إعادة كتابة الوافد من أجل أن يتفاعل مع الموروث. تلك كانت مهمة اللجنة المصرية للتأليف والترجمة والنشر التى أسسها أحمد أمين وزكى نجيب محمود. فقد كانت على وعى تام بالعناصر الثلاثة التى عليها تعتمد النهضة الثقافية. بل إنها أعطت الأولوية للتأليف على أنه الغاية النهائية من الترجمة والنشر بوصفهما وسيلة. لم يكن هدفها إيجاد بديل للفكر الإسلامى أو محاصرة التيار الإسلامى بل تطوير الفكر الإسلامى وترشيد تياره بوسائل جديدة.

ولا يكفى أن يكون هدف المشروع القومى للترجمة، والمشروع القومى للنشر والمشروع القومى للتأليف هو مجرد النشر وملء المكتبات وطباعة المؤلفات فى مكتبة الأسرة فى مهرجان القراءة للجميع، مكتبة فى كل أسرة، وكمبيوتر فى كل بيت، وإلكترون فى يد كل جندى كما كان يقال فى الجمهورية الثانية، بل يواكب ذلك حوار وطنى بين كل مدارس الفكر والعمل دون استبعاد أىٍّ منها فى المؤسسات الثقافية. فلا توجد خصومة فى الفكر بل حوار وتفاعل وإثراء متبادل. هذا هو الوعى الثقافى عبر التاريخ. فالثقافة لها استقلالها عن النظام السياسى واختياراته. لا يهم من الذى يحكم فى القصر بل ما الذى يتحكّم فى العقل. يحكم القصر على الأمد القصير. ويتحكّم العقل على المدى الطويل. ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. وسبحان من له الدوام.

* * *

٩- وحدة الثقافة ووحدة الأمة(*)

عوامل الجذب والطرد فى الوطن العربى والعالم الإسلامى كثيرة ومتعددة. إذا قوى المركز فى الوسط فى دمشق وبغداد والقاهرة جمّع حوله الأطراف فى أفريقيا وآسيا. وإذا ضعف المركز فى القلب تشتت الأطراف نحو عناصر جذب أخرى. وفى حالة الخطر الراهن بتقسيم الوطن العربى والأمة الإسلامية إلى دويلات عرقية، عرب وبربر وأكراد وتركمان وزنوج أو طائفية، سنية وشيعية وإسلامية وقبطية، يتم البحث فى مقومات الوحدة داخل ثقافة الأمة عبر التاريخ لتستمد عناصر قوتها منها، فى عالم تتوحد فيه القوى التقليدية مثل أوروبا، بل ويتوحد فيه العالم باسم العولمة وتحت ذريعة العالم قرية واحدة، وثورة الاتصالات، ونهاية التاريخ، والعالم ذى القطب الواحد، وصدام الحضارات الذى يكتب فيه النصر لحضارة واحدة متفوقة على باقى الحضارات.

صحيح أن التعاون الإقليمى مهم على مستوى المعاهدات الثنائية أو مجالس التعاون الإقليمية أو لجان التنسيق بين جارتين بل وحتى المؤسسات الإقليمية كالجامعة العربية والمنظمات المنبثقة منها، ومنظمة المؤتمر الإسلامى. إلا أنها محدودة الأثر. تتم بين الحكومات والدول أكثر مما تستفيد منها الشعوب. فمازالت قوائم الممنوعين من السفر عبر الحدود العربية تطول باستمرار، وسوء معاملة المواطنين من قطر عربى فى قطر عربى آخر. بل ويصل الأمر إلى قطع العلاقات، وغلق الحدود. بل ويبلغ الأمر إلى حد العبث بالحرب الأهلية بين جارتين أو بعدوان جار على جار آخر. أما اتفاقية الدفاع العربى المشترك فلا مضمون لها. فالعدوان الإسرائيلى على فلسطين منذ أربع سنوات يزداد كل يوم. والعدوان الأمريكى على العراق واحتلال أراضيها منذ عام ونصف مازال قائما. وتهديد السودان وسوريا كل يوم.

(*) جريدة الاتحاد: ٢ أكتوبر ٢٠٠٤م.

يبدو أن المداخل السياسية والاقتصادية والعسكرية لا تساهم إلا فى أضيق الحدود. لم يبق إلا الوجدان والتاريخ والثقافة والهم المشترك والمستقبل البعيد. قد تنهزم الأمة عسكريًا، وقد تضعف اقتصاديًا وسياسيًا، ولكنها ثقافيًا وأدبيًا مازالت صامدة منتجة مبدعة فى الشعر وفنون الأدب، بل وفى الفنون الجديدة التى تعلمها العرب مثل الفنون التشكيلية وأبدعوا فيها.

لقد عرفنا قديمًا وحدة التاريخ العربى الإسلامى. ففى كل أرجاء الوطن العربى والعالم الإسلامى هناك مرجعيات تاريخية واحدة، وأطر نظرية واحدة، ومعايير لتحقيب التاريخ واحدة. الكل يبدأ بظهور الإسلام وانتشاره، وتحقيب الدول التى تعاقبت عليه من الخلافة الراشدة عبر الأمويين والعباسيين والعثمانيين أو دول الأمصار مثل الفاطمية والأيوبية فى مصر والساسانية والبويهية فى إيران، والصنهاجية والمارينية فى المغرب العربى. ومسار التاريخ وتحقيبه الثلاثى واحد، من الحضارة الإسلامية فى عصرها الذهبى وطورها الأول حتى ابن خلدون، ثم عصر الشروح والملخصات بعد ابن خلدون حتى الإصلاح الدينى وفجر النهضة العربية منذ مائتى عام، ثم العصر الحاضر الذى كبا فيه الإصلاح، وتعثرت فيه النهضة، ومحاولة إقامة إصلاح دينى ثان، ونهضة عربية ثانية تستأنف مشروع الإصلاح والنهضة والثورة الأول من أجل إعادة تحرير الأرض، وحرية المواطن، والعدالة الاجتماعية، وتوحيد الأمة، والتنمية المستقلة، والهوية، وحشد الملايين.

مازال الجميع يستلهم سير الأبطال منذ الصحابة الأوائل والقادة الفاتحين شرقًا مثل سعد بن أبى وقاص فى القادسية، وشمالاً مثل خالد بن الوليد فى الشام، وغربًا مثل طارق بن زياد عابرًا أفريقيا إلى أوروبا. وفى لحظات الضنك والعجز والامتهان وضياع الكرامة وقبول الضيم تبرز إلى الأذهان من اللاوعى التاريخى صور صلاح الدين ومحمد على وعبد الناصر.

مازال الجميع يتساءل عن حاضر الوطن العربى ومستقبله. وتكون الإجابة فى استدعاء الماضى أكثر من تحليل الحاضر أو استشراف المستقبل. فالماضى حاضر أكثر من الحاضر. والمستقبل فى يد الله الذى حفظ هذه الأمة وذكرها ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ

لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩]. وهى خير أمة أخرجت للناس. اكتملت عندها الرسالة، وتحققت فيها النبوة.

لا يكفى حمل التاريخ المشترك عن طريق استدعاء الذكريات الواحدة، والحكم بأطر مرجعية واحدة. بل هناك أيضا المقومات الثقافية الواحدة التى تحافظ على وحدتها ضد مخاطر التجزئة والتفتيت. فالفرق الإسلامية منتشرة فى كل مكان، سنة وشيعة وإباضية ودرزية بل وأحمدية فى أفريقيا وبهائية فى الغرب، وإمامية وإسماعيلية فى آسيا وفى الغرب. والمذاهب الفقهية واحدة منتشرة فى كل ربوع الأمة المالكية فى المغرب العربى، والشافعية فى مصر، والحنفية فى العراق والشام وتركيا وأواسط آسيا، والحنبلية فى شبه الجزيرة العربية فى الصيغة الوهابية، وفى السودان مع المهدية. وحكماء الإسلام عرب وعجم. الكندى عربى، والفارابى تركى، وابن سينا والرازى من فارس «لو كان العلم فى الثريا لناله رجال من أهل فارس». والتصوف والطرق الصوفية وحدت الأمة بين مصر والمغرب مثل أبى العباس المرسى، والسيد البدوى، وبين مصر والشام مثل عبد الغنى النابلسى، وبين تركيا وأواسط آسيا مثل النقشبندى، وبين إيران والغرب فى المولوية، وبين السودان وأفريقيا فى التيجانية والمرغنية والمهدية. حلقات الذكر منتشرة فى كل مكان توحد روح الأمة بعد تفتيت أوطانها، واحتلال أراضيها، وعجز شعوبها. والعلوم النقلية، القرآن والحديث والتفسير والسيرة والفقه ثقافة دينية عالمة وشعبية فى كل مكتبات الأمة ومساجدها، وبرامج تعليمها، ونشرها وتجديدها. بل إن العلوم العقلية والطبيعية الخالصة مازالت فخر الأمة، الرازى والخوارزمى وابن حيان من فارس، والحسن بن الهيثم من مصر، والغافقى من الأندلس، وأولوغ بك صاحب المراصد من سمرقند. والطب والصيدلة للرازى وابن سينا وابن رشد وابن البيطار يوحد علم الأمة. وكلما اشتد التمزق على الأرض وعظم التفتيت استدعت الأمة وحدة ثقافتها وعلومها وإبداعها التاريخى المشترك.

وهناك ركيزة الثقافة الواحدة ومنبعها الأول فى التوحيد وهو شعار الأمة وليس فقط عقيدة، فالتوحيد عقيدة عند كل الشعوب والثقافات وفى كل الملل والنحل، ولكن أثر التوحيد على وحدة الفرد، ووحدة الجماعة، ووحدة الأوطان، ووحدة الأمة، ووحدة الإنسانية.

التوحيد تصور للعالم. العالم من أصل واحد، وفى مساره واحد، وفى نهايته واحد. فالوحدة تعم كل شيء. والتوحيد اسم فعل أو مصدر من «وحّد» «يوحّد» «توحيدًا»، ليس جوهرًا ثابتًا بلا حراك. هو تحول من الفعل إلى الاسم، ومن الحركة إلى الثبات. التوحيد جهد ومعاناة ضد التجزئة والتشتت والتبعثر والتفتيت وتضارب الأهواء. وهو ما عبر عنه علماء أصول الدين والصوفية فى آن واحد فى نظريات «وحدة الشهود» أن لا يرى الإنسان العالم إلا من منظور الوحدة ضد المعيار المزدوج وتضارب المعايير فى الحكم على الأشياء. فما يقوم به العرب والمسلمون فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير إرهاب. وما تقوم به إسرائيل وأمريكا وروسيا والهند مقاومة ودفاع عن النفس وتحقيق للسلام. ثم تأتى «وحدة الوجود»، وحدة البشر والناس، وحدة الماضى والحاضر والمستقبل، وحدة الأضداد حتى لا يبقى فرق بين عربى وعجمى، بين أبيض وأسود، بين غنى وفقير، بين قوى أو ضعيف، بين حاكم أو محكوم.

ويبدأ التوحيد بالشخص، توحيد طاقات الإنسان الداخلية والخارجية، الداخلية فى الفكر والوجدان، والخارجية فى القول والعمل حتى يأمن الإنسان من الخوف والجبن والرهبة، وأن يفكر فيما يشعر به، حتى يصدق الفكر مادام قد صدق الوجدان. كما يتجنب النفاق والتملق بأن يقول ما يعتقد، ويعتقد ما يقول ضد الكذب والمداهنة. و«الساكت عن الحق شيطان أخرس». كما يتجاوز قول ما لا يفعل، وفعل ما لا يقول. وهو نوع من الكذب العملى كما يفعل القادة والمسئولون تخديرًا للناس، إيهامًا لهم بأن الحلول قادمة، وأن عنق الزجاجة قد قارب على العبور عليه. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

وبعد وحدة الشخص تأتى وحدة المجتمع حيث تذوب فيه الفوارق بين الطبقات. فالمجتمع الذى تسوده الفوارق الشديدة بين الأغنياء والفقراء مهدد بالانقسام دون تقاسم السلطة والثروة كما هو الحال فى السودان بين شماله وجنوبه وغربه، والوطن العربى كله بين مشرقه ومغربه، والأمة الإسلامية كلها بين سلاطينها وأغنيائها من ناحية وفقرائها الذين يموتون من التصحر والفيضان والجوع والعطش من ناحية أخرى. والمواطنة بلغة العصر هى التى تخلق وحدة الوطن والمساواة بين الحقوق والواجبات أمام القانون بلا تمييز بين ذكر وأنثى أو طائفة أو عرق أو لون أو بشرة أو إقليم أو لغة.

وبعد وحدة المجتمع والوطن تأتى وحدة الأمة على كل مستوياتها، الأمة العربية والأمة الإسلامية. ولا تناقض بين الدائرتين، الدائرة الأضيق، القلب والمركز والأصل، والدائرة الأوسع التى أعزت الإسلام ودخلت شعوبها فيه أفواجًا بحيث فاقوا من حملوه بشرا وثروة واقتصادا ونموا. ولا تعنى وحدة الأمة بالضرورة الوحدة السياسية نظرا لترامى الأطراف من الصين حتى المغرب ومن شرق أوروبا حتى جنوب أفريقيا. بل تعنى وحدة المقاصد والأهداف، والمصالح المشتركة، والتنسيق والتعاون، وحماية الاستقلال، والتوازن فى نظام العالم.

وبعد وحدة الأمة تأتى وحدة الإنسانية. فالناس أمة واحدة، إسلامية أو غير إسلامية. الإسلام آخر الأديان. احتواها جميعا، ديانات إبراهيم، اليهودية والمسيحية، والديانات الآسيوية، الكونفوشيوسية والتاوية والهندوكية والبوذية والشنتوية. فما من أمة إلا خلا فيها نذير ﴿**مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ**﴾ [غافر: ٧٨]. ومقاصد الشريعة، الدفاع عن الحياة والعقل والعلم والكرامة والثروة، لا تخص مسلمًا دون غير مسلم، وأمة مسلمة دون أمة غير مسلمة. فالأمة الإسلامية ركيزة الإنسانية وقلبها، وميزان تعادلها.

إن ثقافة التوحيد ليست مجرد عقيدة أو تاريخ بل هى تحقق عملى، وحركة فى المجتمع، وقانون للتاريخ. وهى القادرة على الحفاظ على وحدة الأمة مهما عصفت بها عوامل الفرقة والتجزئة ﴿**أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ [يوسف: ٣٩].

* * *

١٠- الحوار بين الاستبعاد والاحتواء(*)

الكل يتساءل: كيف الخروج من الأزمة الراهنة؟ وهى أزمة مزدوجة، أزمة فى نظم الحكم فى الداخل، وأزمة فى كيفية التعامل مع الخارج فى عالم ذى قطب واحد.

وتتمثل أزمة نظم الحكم فى الداخل فى التوقف فى المكان، وصعوبة الحركة فى أى اتجاه. فالأوضاع تزداد تعقيداً يومًا وراء يوم. ولا حل إلا بمزيد من سيطرة الدولة على حركة المجتمع بالرغم من الصياح فى الداخل بضرورة تقوية مؤسسات المجتمع المدنى ومشروعات الإصلاح فى الخارج التى تريد إضعاف الدولة وتقوية المؤسسات المدنية وعلى رأسها القطاع الخاص القادر على التعامل مع العولمة وقوانين السوق.

وتتمثل أزمة الخارج فى مزيد من سيطرة القطب الواحد على العلاقات الدولية وبخاصة بعد نجاح اليمين المحافظ فى الإدارة الأمريكية لدورة ثانية تعطيه الشرعية لتسويغ سياساته العدوانية، اليوم العراق وأفغانستان، وغدا سوريا وإيران والسودان. والنظام العربى لا حول له ولا قوة لتفككه وضعف إدارته، وغموض رؤيته. ولم يبق له إلا المهادنة أو التفرج على ما يحدث مع إحساس بالعجز، وبعدم القدرة على الفعل، «أزمة وتعدى»!

من مظاهر الأزمة وصول النظام العربى إلى منتهاه. فقد طالت مدة الأحزاب الحاكمة أكثر مما ينبغى. تجاوزها الزمن، وهى لم تتجاوزه. العالم تغير، وهى لم تتغير. ومن طول التعود على النظام فى الخارج وفى الداخل ثبت العقل السياسى فى اختيار واحد، وتوقف الخيال السياسى عن إيجاد البدائل. فتكلست الحياة السياسية مما أدى إلى تفسخ المجتمع حتى تناثرت شظاياه. ولم يعد يجمعها جامع إلا الإحساس بالعجز والإحباط والضياع.

(*) جريدة الاتحاد: ٢٥ ديسمبر ٢٠٠٤م.

وانعكست الأزمة أيضًا على أحزاب المعارضة التى لم يتجدد فكرها. مازالت تعارض فى أطرها النظرية القديمة، ليبرالية العشرينات أو ماركسية الأربعينيات أو قومية الستينيات أو إسلامية السبعينيات. يرى كل حزب نفسه أنه البديل الوحيد عن السلطة القائمة. يحكم بمفرده كما تحكم السلطة بمفردها. عينه على السلطة. فاقترب منها أكثر مما يجب مهادنة أو بعدا وشوقا. وكلما اقتربت من الحكم انعزلت عن الناس. ولم تجد الجماهير من يعبر عنها، لا الحزب الحاكم، ولا أحزاب المعارضة.

أصبح الكل فى خطر، الحاكم والمحكوم. اليمين يشتد فى الخارج، وتقوى المحافظة فيه. وتستنفر قواها ضد «الإرهاب» دفاعًا عن الأمن والاستقرار. تحاصر أنواع المعارضة كافة فى الداخل والخارج حتى يبقى الأمر على ما هو عليه لصالح النظام الداخلى والقطب الأوحد الخارجى. تصفى المقاومة فى العراق وفى فلسطين، وتقصى فى أفغانستان والشيشان حتى تجهض فى باقى الأوطان قبل ولادتها، باستثناء بؤر هنا وهناك مازالت تمارس العنف فى الداخل والخارج بوصفه عنفًا رمزيًا.

والجميع خائف مترقب، على من الدور القادم؟ وأين الانتفاضة القادمة؟ ومتى الخلاص القريب؟ والدماء تسيل فى كل مكان. يُقتل من يُقتل، ويُدمّر من يُدمر. والنازحون بالآلاف. وأصوات الاستغاثة تعلو. والآذان صماء، والقلوب تدمى.

و أخيرا ظهرت بارقة أمل فى الحوار الوطنى فى كثير من الأوطان، ومصر فى مقدمتها. الحوار بين أحزاب المعارضة الرسمية أو الأحزاب تحت التأسيس لوضع سياسات بديلة تعبر عن مصالح الناس وكرامة الأوطان حتى ينشط الخيال السياسى، وإيجاد مخرج للأزمة الراهنة. وسرعان ما تم الحوار بين أحزاب دون أخرى، إبقاء البعض، واستبعاد البعض الآخر.

نشأ حوار وطنى فى مصر أخيرا بين أحزاب المعارضة الرسمية بغير التيارات السياسية الأخرى التى تتحكم فى الشارع السياسى دون أن يعترف بها الحزب الحاكم رسميًا، وأهمها حركتان: الإخوان والشيوعيون. وهما الجناحان الرئيسيان فى الحياة السياسية منذ الأربعينيات. فولد الحوار ميتًا، لا يمثل إلا الأحزاب التى تتصور نفسها سلطة بديلة. وأصبح حوارًا رسميًا بين قادة أحزاب وليس حوارًا وطنيًا بين تيارات

وحركات جماهيرية، وقوى سياسية، يشارك فيها الجميع، وتعرضها أجهزة الإعلام. تنبع من قلب الحياة السياسية، وتصبح علامة على المسار الوطنى. بل إن هذا الحوار الرسمى سرعان ما لفظه النظام لأنه لا يقبل الحوار. فهو صاحب السلطة والثروة. لا يقتسمها مع أحد. ولا يتعدى الأمر تحسين الصورة أمام أجهزة الإعلام الغربية.

ولأول مرة يجتمع الإخوان والشيوعيون المستبعدون فى حوار خاص بهم بعيداً عن الحوار الوطنى الرسمى. وينتهى العداء التاريخى بينهما منذ الأربعينيات وحتى الآن، فى العهدين الليبرالى والقومى. وقد يتغير مجرى التاريخ فى حياة المعارضة. وتتمايز بين المعارضة المستأنسة، السلطة البديلة فى غزل مع السلطة القائمة لتجميل الموقف السياسى والاشتراك الصورى فى الحكم، وتحقيقًا للتعددية السياسية، ومعارضة شعبية قائمة بالفعل وقادرة على تحريك الجماهير. المعارضة الأولى صورة بلا مضمون. والثانية مضمون بلا صورة. للأولى وجود شرعى وليس لها وجود فعلى. وللثانية وجود فعلى وإن لم يكن لها وجود شرعى. الأولى عينها على السلطة، والثانية عينها على التاريخ.

إن التغير السياسى ليس فى الحزب الحاكم. فلا فرق بين الحزب الحاكم وأحزاب المعارضة كسلطة بديلة. إنما التغير السياسى فى القدرة على إيجاد سياسات بديلة للسياسات القائمة من أجل حل الأزمة الراهنة فى التوقف عن الحركة، وحصار الزمن، والخروج من التاريخ.

ليست التبعية خيارا أوحد، ولا الاستقلال تنقصه الإمكانات. إذ يمكن التحرك والمناورة حتى إذا استأسدت قوة واحدة كبرى بنظام العالم وفرضت سلطانها عليه. الخيال السياسى بلا حدود. وليست أمامه موانع مادامت إرادة فك الارتباط بالقوة المهيمنة متوافرة.

ليست المناطحة السياسية أو حتى العسكرية بالمواجهة هو الخيار البديل إذ تتعدد أساليب المقاومة. ومنها الحوار الوطنى مع الخارج حول جدوى استعمال القوة التى تخلق عداء شعبيا كما هو الحال فى العداء الشعبى للهيمنة الأمريكية. كما تؤدى إلى عدم استقرار للنظم الداخلية بل ولنظام العالم. وإرهاب الدول يسبب إرهاب الأفراد. وهيمنة القوى الكبرى على نظام العالم يسبب مقاومة الشعوب.

ولا تجدى الحركات السرية. فالعيون فى كل مكان. إنما الحوار الوطنى العلنى، والمعارضة الشرعية قد تكون قادرة على بيان أن بقاء الحكم يكون أضمن بالحوار مع الداخل وليس بالتبعية للخارج، وأن الانفتاح على الداخل يكون هو المخرج إذا ما تعقدت الأمور فى الخارج ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

إن تكَوُّن جبهة وطنية للإنقاذ فى الداخل تمثل كل الأحزاب والتنظيمات السياسية ومؤسسات المجتمع المدنى والفاعليات الأساسية فيه تتفق على برنامج موحد للعمل الوطنى قد يكون هو المخرج من الركود السياسى الحالى. ولها رصيدها فى التاريخ لدى كثير من الشعوب فى لحظات الحسم التاريخى.

تجميع القوى فى الداخل مقدمة للتعاون الإقليمى والتعاون المتبادل بين دول الجوار، واستقطاب أجنحة الوطن الشاردة التى تبحث عن مراكز استقطاب أخرى خارج أوطانها. والاتحاد الأوروبى ومنظمة جنوب شرق آسيا خير شاهد على ذلك. ويمكن زيادة فاعلية المنظمات الإقليمية القائمة مثل الجامعة العربية، والاتحاد الأفريقى، ومنظمة المؤتمر الإسلامى.

إن نجاحًا واحدًا يشعر به الناس لقادر على أن يحول السياسات القائمة فى الداخل والخارج مثل نظم الحكم فى المغرب وتركيا، والتجربة الماليزية والإندونيسية والإيرانية الإصلاحية.

والحوار مع النفس يسبق الحوار مع الآخر، والحوار مع الجميع دون استبعاد أى طرف وبخاصة لو كان فاعلاً فى الحياة السياسية. هو حوار لتجميع القوى الوطنية المستقلة. لا تقصى أحدًا ولا يحتويها أحد. تهدف إلى تغيير الواقع والعودة إلى التاريخ.

***